## الفصل الرابع

# تيماء وما جاورها

كان عبد الله الشنيفي صديقاً قديماً لي، وكنت أحياناً أتمتع بزيارته خلال مدة ولايته الطويلة لإمارة الدوادمي، وهي المحطة الكبرى على الطريق الرئيس من مكة للرياض. وكان هو الذي -في أوائل صيف عام ١٩٥٠م- رتّب بكرم شديد الترتيبات التي مكنتني من زيارة ونسخ النقوش السبئية الشهيرة الآن في وادي ماسل والتي دونها ملوك سبأ في القرنين الخامس والسادس بعد الميلاد، وكان وجودها قد بلغني بصورة غامضة نسبياً عن طريق أخو الملك، الأمير عبد الله ابن عبد الرحمن، وخلال شتاء عام ١٩٤٩م- ١٩٥٠م زارها فؤاد حمزة من وزارة الخارجية السعودية، وأرسل لي بعض النسخ الجزئية، وكما ثبت فيما بعد، أنها غير دقيقة إلى حد ما؛ فقد أعدها على عجل ليعود إلى الراحة والرفاهية في الدوادمي. وقد أرسلت هذه النسخ إلى البروفسيور جي. ركمانز من جامعة لوفيان، وهو أكبر خبير في العالم في تاريخ سبأ ونقوشها، وقد ناقشها في محاضرتين ألقاهما في لندن وأكسفورد في أوائل شهر

مايو ١٩٥٠م، وفي نهايته رأيتها ونسختها بالكامل بأفضل ما أستطيع من مهارة. وقد نشر البروفسيور ركمانز كما ينبغي النسخ التي أعددتها قرب نهاية العام، وفي فبراير التالي سررت سروراً عظيماً عندما وصل هو وزملاؤه الخبراء إلى الموقع نفسه في نهاية جولة طويلة قمنا بها معاً إلى نجران والحدود الجنوبية للمملكة العربية السعودية.

ولدي سبب وجيه للشعور بالشكر والامتنان لعبد الله الشنيفي على تعاونه الأخوي في اكتشاف ونشر النقوش السبئية الملكية الوحيدة نشراً كاملاً والتي اكُتشفت لتوها في وسط الجزيرة العربية. إن عبد الله وأخويه، عبد الرحمن وعبد العزيز، رجال ذوو سحر عظيم وكرم ولطف يعود للزمن القديم، كما أن حسن ضيافتهم كان عظيماً ومشهوراً إلى حد بعيد. وقد انحدرت العائلة أصلاً من حائل، حيث لا يزال أبوهم، إبراهيم الشنيفي، يعيش هناك خلال هذه الأعوام، مع أنه من المتوقع وصوله إلى تيماء خلال فترة وجيزة مع عائلة الأمير نفسه، التي تركها وراءه في الدوادمي أثناء انتقاله على عجل نسبياً ليتولى مسؤولية منطقته في الوقت المناسب، وفي غضون ذلك، كان أخوه عبد العزيز في ١٩٤٩م قد عُيّن أميراً لمنطقة الخرج ومقر إقامته في إمارة الدوادمي. وغني عن القول أن إقامتي المؤقتة لتسعة أيام لم تكن بهيجة وسارة جداً فقط بل كانت أيضاً مثمرة إلى أقصى حد بسبب تعاون وكرم ضيافة عبد الله، على

الرغم من أنه كان غائباً عن تيماء حوالي نصف المدة تقريباً ولم يعد إلا في الوقت المناسب لتسريع انطلاقنا على طريقنا نحو الشمال. وكان غيابه بسبب انشغاله بقرب وصول والده المسن وزوجاته وأطفاله، فمن أجل مصلحتهم كان يحاول أن يحسّن من الطريق الرديء الذي سيأتون منه. إن الحافز الشخصي لأنشطته وأعماله هذه لم يكن إلا مقدمة لقرب إنشاء طريق سريع جديد له فائدة لا يمكن تقديرها لتيماء والدولة عموماً، إن الطريق الفرعي الطويل والشاق الذي يلتف حول الأراضي الوعرة والذي أتينا منه، قد أصبح شيئاً من التاريخ، ولم يعد يشجع على المرور بين تيماء وحائل أو خيبر.

ولولا مبادرات الأفراد الساعين للتطور مثل مضيفنا في تيماء، وهناك الكثير منهم بين حكّام المناطق في السعودية، لكان عدم الاكتراث من الحكومة المركزية بالأمور المتعلقة بالمناطق النائية سبباً في حدوث حالة من الفوضى مثل التي انتشرت في شبه الجزيرة العربية منذ قرون طويلة مضت، عندما كانت الإمبراطورية العربية شديدة الانشغال بفتوحاتها الخارجية لدرجةٍ أنستها التفكير في أرض مولدها.

إن عبد الله الشنيفي، الذي لم يأت إلى هنا إلا في أكتوبر الماضي بصفته أول أمير لتيماء، قد استضافنا إلى غداء كبير مترف في منزل صيفي رائع ذي حديقة ساحرة داخل حدود القلعة، المصممة بعناية

لتزويد العائلة الحاكمة بجميع المتع والرفاهية البسيطة في الحياة العربية مع الأمن التام من الأعداء الحقيقيين أو المتوهمين من باقي العالم. لقد كان المهندس المعماري رجلاً مجنوناً، ولكن الحديقة على الأقل قد أكسبته التقدير، بصفوفها المكتظة بأشجار الليمون والقريب فروت (الليمون الهندي)، وشجيرات الرمان، وأشجار الخوخ والعنب المعروشة وأشجار النخيل الطويلة التي كانت تتمايل برؤوسها الجميلة فوق المتنزه التابع للقصر. ومحصول التمر، الذي يتأخر هنا عما في الجنوب، لم يُجْمع إلا للتو، وحتى قبل عشرة أيام فقط كانوا يأكلون تمراً طازجة من الأشجار مباشرة.

لقد كانت الحديقة متاخمة لسور القلعة العظيمة التي كانت بمنزلة مقر خاص لسكنى الأمير، الذي أخذ الحيطة بتركيب أبواب مصفحة بالحديد وذات قوة وصلابة هائلة على المدخل الوحيد ليضمن حصانة كاملة من أي إزعاج خلال ساعات الظلام في الليل. وفي صالة القهوة عند المدخل رأيت نقشاً عربياً طويلاً. واستطعت بعد عدة أيام أن أحكه بصورة غير مُرْضية إلى حد ما، ولا أستطيع القول ما إذا كان حديثاً ومعاصراً لبناء القلعة في السنوات الأولى من القرن الحالي، أو أنه ربما شديد القدم وتم تركيبه في البناء الحديث ليضفي جواً من الاحترام على المكان. ولم يُتح لي فرصة فحص الأجزاء الخاصة من هذا المبنى، التي كانت بلا شك لا تختلف عن الطراز

النجدي العادي في الأثاث. وبعد الغداء بفترة وجيزة من العبث والتلكؤ البهيج في الحديقة، تم إيصالنا إلى المنزل المخصص لنا طوال مدة إقامتنا المؤقتة. لقد كان أكبر بقليل من حوش مكشوف به غرفتان أو ثلاث غرف صغيرة مبنية بالطين ومتاخمة لفناء صغير شديد القذارة، وغرفة وحيدة في الطابق الأول، يمكن الوصول إليها بمزلقان طيني مكسور، ذي درج رديء. وقد اتخذت الغرفة العلوية لنفسي وتركت باقي المنزل لرفاقي ومستودعاتنا. ويبدو أن السقف سوف يسرب الماء عند هطول المطر، والنافذة عبارة عن كوة مفتوحة في أحد الجدران بينما في كلا الطرفين كان هناك باب مركبّ بصورة سيئة، وكان الباب البعيد منهما يفضي إلى سقف أحد الغرفتين السفليتين، والذي يوجد فيه مرحاض صغير بدون سقف وذو جدران سيئة يمكن أن يستخدم في حال الاضطرار لقضاء الحاجة كدورة للمياه.

لقد كانت الحياة في الخيام خارج المدينة أفضل بكثير، ولكن بسبب توقع هطول الأمطار بغزارة اعتقدت أنه من الأفضل أن نقبل ما يُعطى لنا. وقد قضيت ما تبقى من فترة العصر في زيارة بئر هداج الكبيرة وجولة سريعة على الواحة ومشاهدها المختلفة بصحبة اثنين من شباب المدينة، وهما محمد وضيغام من أحفاد سلامة الذي كان شيخاً لأحد الأحياء الثلاثة التي كانت تنقسم إليها القرية الرئيسة

عندما زار داوتي تيماء في عام ١٨٧٧م. وقد ترك سلامة ولدين، هما حسين وعيد، وكان للأول ولدان هما عبيد وحميدي، وكان رفاقي أولاد الأخير، في حين يوجد آخر اسمه محمد، وهو طفل في الثامنة، الولد الوحيد لعبيد.

وكان لعيد ولد واحد اسمه صنعان، الذي كان ضيفان هو ولده الوحيد الباقي على قيد الحياة، والآن أصبح رجلاً كامل الرجولة. وكان هناك خَلَف العُمر، شيخ حي آخر في زمن داوتي، ممثلاً بحفيده دفّاق بن حميدي، وهو رجل في حوالي الخامسة والثلاثين من العمر.

ومما عندي انطباع بأن مناخ تيماء وظروفها قد حصدا أرواحاً كثيرةً ومتزايدة من سكانها البؤساء إلى حد ما، لقد قابلت بالفعل بعضاً من الشيوخ وكبار السن، ولكن لم يكن هناك خطأ في تخيل الجو العام للفقر والجوع الذي بدا أنه يخيم على المكان، فقد قال لي أحد الشباب الذين كانوا معي في هذا الأصيل الأول، عندما سألته عما إذا كان الجراد قد زارهم خلال الموسم، إنه صراحة يأمل في أن يأتي الجراد قريباً حتى يوفر إضافة مطلوبة لمخزونهم الضئيل من الطعام. وفي سنوات الجراد "الطيبة" عندما يأتي الجراد بكثرة فإنهم لا يأكلون فقط ملءَ بطونهم من هذه الحشرات المشوية، ولكنهم أيضاً يدخرون مخزوناً مقدراً منها للمستقبل، ولبيعه للبدو عندما يأتون

إلى السوق. وكذلك في هذا الموسم، بعد جمع محصول التمر، فليس هناك الكثير من الأذى الذي يمكن أن يحدثه الجراد.

وتضم واحة تيماء ثلاثة أقسام متميزة، أهمها القسم الأوسط، الذي تتجمع فيه بساتين النخيل الواسعة والمزدهرة في شكل بيضوي متسع حول بئر هداج. والقرية عبارة عن مجموعة، لا يمكن وصفها، من بيوت بسيطة بصورة أو بأخرى تنتشر بغير نظام في وحل بساتين النخيل على طول الأزقة الضيقة والمرهقة التي تؤدي إليها. ولا يوجد مكان للسوق يمكن تمييزه، أو ما يسمى بمركز التسوق، ولكن الدكاكين، كما هي قائمة فعلاً، يبدو أنها تشكل جزءاً من مساكن مالكيها.

إن "الشارع الكبير" الواسع المؤدي من قلعة الأمير إلى بئر هداج يبدو من الواضح أنه قد تم تطويره حديثاً ليكون ذا طبيعة إستراتيجية، فهو قد صممه آخر حاكم من أهالي الواحة أنفسهم ليسيطر به على طريق الوصول إلى مياه الشرب، ولتوفير مجال للهرب من قلعته في حالة حدوث أي عدوان من ابن رشيد في أوائل هذا القرن، أو من ابن سعود منذ استيلائه على حائل في ١٩٢١م. والجهة الشمالية من هذا القسم تقع على طول حافة مسطح السبخة الكبير الذي يمتد لأكثر من ميل باتجاه الجرف الذي يطوق المكان من الهضبة التي وراءه باتساع يبلغ نحو ثلاثة أميال أو أكثر. وفي الجنوب تمتد المنطقة

الواسعة من الأنقاض البائسة في تيماء القديمة، التي كانت ذات يوم العاصمة الصيفية لنبونيدوس، ملك بابل.

والضاحية الجنوبية، التي تُعرف باسم الغرب مفصولة عن الواحة المركزية بقناة وادي السيفية الواسعة، أثناء مروره في السبخة. وفي الأزمان الغابرة كانت سيوله تروي مناطق شاسعة من حقول الذرة على الجانبين، أما الأرض العليا على ضفته اليسرى فلم تكن تشمل فقط قرية صغيرة بل كان بها الكثير من الآبار لري بساتين النخيل ومحاصيل الحبوب. والمنطقة كلها أنقاض وخرائب، أو كانت أنقاضاً في وقت زيارتي لها، بعد أن دُمّرت عن عمد في عام ١٩١٦م من قبل الحاكم المجنون مراعاة لأفكاره عن الأمن الإستراتيجي. ونفس المصير بعد مرور خمس سنوات من ذلك، قد أصاب الضاحية الشرقية التي تسمى الشرق، لقد كانت آبارها وبساتين نخيلها ومزروعاتها -باستثناء بستان وحيد قرب القسم الأوسط- قد دمرت بفجور شديد خشية أن توفر غطاءً وحماية لأي محاولة ممكنة من ابن سعود لاحتلال الواحة.

والآن وقد ولى النظام القديم إلى غير رجعة، وحل السلام والأمن الأكيد بالضم السعودي الفعلي لها، فلا يشك المرء في أن قسطاً من الرخاء سيعود إلى تيماء، بيد أن هذه العملية ستكون بطيئة ما لم تتخذ الحكومة السعودية إجراءات نشطة لمساعدة مواطني

الواحة على استعادة آبارهم وإعادة زرع بساتينهم التي دمرت كلها بالقوة القاهرة من الطاغية المستهتر الذي يبدو أن انشغاله الدائم بهجماتٍ من الأعداء قد أعماه عن الخطر الأشد قرباً من السخط الفظيع بين أهل بيته نفسه. إن اغتياله في حصنه على يدي ابن عمه في سبتمبر ١٩٥٠م، وما نتج عن ذلك من احتلال الواحة من قبل الحكومة السعودية، قد ألقى بالمسؤولية عن التكفير عن جرائمه على الطرف الأخير. لقد زار الملك سعود تيماء ضمن جولته التي أعقبت الانتصار على مناطقه الشمالية في ١٩٥٤م، ولا بد من أنه كان يعلم بحاجته العاجلة للمساعدة، إلا أنني لم أسمع عن أي إجراء أُتُّخذ منذ ذلك الحين ليخفف من أسى شكل القرية البائسة.

ويبدو أننا لا نعرف سوى القليل عن تاريخ تيماء خلال الاثني عشر قرناً أو ما يقترب منها بعد خضوعها التقليدي للرسول (صلى الله عليه وسلم)، والذي يرتبط مكان مخيمه وقت المعركة بصورة غامضة في الأسطورة المحلية بدرب المحجة في الأرض السبخة (أي مكان الحجاج) على الرغم من أن الاسم كان من الواضح أنه أشد قدماً مما يوحي به هذا الارتباط، حسبما يتضح بصورة جلية في أحد النقوش الثمودية التي اكتشفتها في المنطقة. وعلى كل حال، على مدى المئة عامٍ الماضية، كانت تيماء دائماً تحتل مكاناً بارزاً إلى حد ما في الهيكل السياسي للجزيرة العربية، وتتمتع بحالة من شبه

الاستقلال مع فترات من شبه الاعتماد على قوة حائل المتزايدة، منذ أن تم تأسيس الأخيرة وجعلها إمارة على يد عبد الله بن رشيد في منتصف الثلاثينيات من القرن الماضي (١٨٣٠). وعندما زار غوارماني تيماء في ١٨٦٤ متخفياً على هيئة مبعوث من الحاكم التركي لدمشق ومكلف بشراء خيول، يبدو أن الواحة كانت مستقلة تماماً تحت إدارة حاكم محلي هو رمان بن هتيمي، والذي كان أحفاده حكاماً لها معترفاً بهم حتى قبل وقت زيارتي لها مباشرة. وبما أن اسم الأسرة الحاكمة هو ابن رمان فإن ذلك يوحي بقوة شديدة أن رمان نفسه كان مؤسسها، وحيث إنه كان رجلاً في حوالي الستين من العمر، فإن بداية عهده في تيماء قد تعود بصورة معقولة إلى حوالي ١٨٤٠م، وقد وجده غوارماني ودوداً تجاه الأتراك، وأنه كان على درجة كافية من العلاقات الطيبة مع طلال بن رشيد، حاكم حائل في ذلك الوقت، حتى إنه أعطاه خطاب تزكية وتعريف إلى ذلك الحاكم.

وعندما وصل تشارلز هوبر تيماء في أوائل الثمانينيات من القرن الماضي (١٨٨٠م)، بعد أن سبقه داوتي بسنوات قليلة، كان الحاكم يدعى عبد العزيز، الابن الأكبر لرمان، ويشير هوبر بوضوح نسبياً، دون أن يطيل في كلماته، إلى أنه كان تابعاً لحائل، التي كانت في ذلك الوقت تحت حكم محمد بن رشيد الشهير. ومع ذلك، لم يكن

لهذا الأخير أي وكيل يمثله في تيماء، التي كانت إداراتها كلها على يد حاكمها المحلي: -ويذكر هوبر أيضاً مقابلته اثنين من إخوان الأخير وهما ثويني وزيد- وليس على يد الذي قُدر لولده عبد الكريم أن يحكم الواحة معظم سنوات النصف الأول من القرن الحالي. وبعد هوبر لا يوجد لدينا وصف أولي لتيماء لربع قرن من الزمان، وعندما زارها دوجلاس كاروثرز في ١٩١٠م كانت إدارتها الفعلية بيد وكيل ابن رشيد، سعيد (على الرغم من أن كاروثرز لم يذكر اسمه) الذي خلفه بعد ذلك بفترة وجيزة شخص يدعى ناصر بن عتيق. وفي عام ١٩١٦م كان هذا الأخير مع حراسته كلها قد تم تصفيتهم من قبل عبد الكريم، والذي أكد بفعلته تلك استقلال أسرته الحاكمة؛ ولكي يدافع عنها ضد دعوة ابن رشيد، فقد شرع في العمل فوراً على بناء الجزء الرئيس من القلعة الحالية على حافة حزام النخيل. ولم يُضف مبنى ثانياً لعائلته إلا بعد ذلك بعشرين عاماً، لزيادة أمنه أثناء الليل وخلال أوقات الراحة العادية، في حين أحاط المنطقة كلها بسور شاهق للاحتياط الكامل.

ولقد ذكرت من قبل الباب المصفح بالحديد، والمنفذ الوحيد لمبنى الحريم، وباباً آخر مشابهاً لهما، وهما يوفران، على ما أعتقد، الوسيلة الوحيدة للوصول إلى القسمين الرسمي والعام من مبنى القلعة، التي كانت مكتفية بذاتها، مع مسجد فسيح، وصالة قهوة

كبرى والتي توظف أيضاً كغرفة طعام للموائد الرسمية عندما يستضيف الحاكم أتباعه في مناسبات خاصة. والبرج العالي العريض الذي يعلو هذه الغرفة الكبرى يحتوي على المكاتب الإدارية للمنطقة في الطابق الأول، مع غرفة حراسة فوقه، تتمتع برؤية رائعة للمنطقة المجاورة كلها مسافة أميال في دائرة مستديرة. وقد سُمح لي أن أنال فرصة زيارة هذه المنطقة الإستراتيجية لمسح المنطقة والتقاط بعض الصور الفوتوغرافية. ولا ريب أن شيوخ ابن رمان، الذين يبدو أنهم من قبيلة شمر (سنجاره) أصلاً، كانوا يحتفظون بعدد هائل من الحراس الشخصيين من بين التابعين الموثوق بهم، وكثير منهم كانوا عبيداً أرقاء، لتسيير دوريات وحماية الأسوار، وفي الليل لا يبقى أحد في حدود القلعة إلا الحاكم وعائلته، وخدمهم وحراسهم. ومن الطريف أن هؤلاء الحكام كانوا، قبل ١٩١٦م يسكنون في قلعة من الطين أشد صغراً وأكثر روعة، بناها لهم أتباعهم دون أجر، في وسط بساتين النخيل الرئيسة عند حافة منطقة مساحتها واسعة ومفتوحة تضم بئر هداج.

وفي غضون ذلك -وكما ذكرت سابقاً- قام عبد الكريم بتدمير ضاحية الغرب تدميراً كاملاً والجزء الأعظم من ضاحية الشرق وهكذا قلل بصورة كبيرة من الأهمية الاقتصادية لمملكته أو منطقته، حتى يضمن ميداناً مفتوحاً للرماية بالنار لحماية استقلاله في حالة

تعرضه لأي تهديد من الخارج. ويبدو أن الضرر والأذى الخطير الذي لحق بمصالح أتباعه لا يهمه في قليل أو كثير، ومن الواضح أنه كان قوياً بدرجة كافية لفرض إرادته وسيادته على مجتمع بائس. وفي الحقيقة لا يبدو أن سعود بن رشيد، الذي كان منهمكاً بالكامل في الدفاع عن مناطقه ضد القوة المتنامية للرياض، لم يبذل أي محاولة على الإطلاق للانتقام لمقتل وكيله، أو لإعادة تأسيس سلطته في تيماء.

وعندما سقطت حائل نفسها لابن سعود في ١٩٢١، كان من الواضح أن العاهل السعودي قد اكتفى بترك حاكم تيماء في حالة من شبه الاستقلال، وبشرط ألا يتعدى على أقاليمه الأخرى. وعلى كل حال لم يستمر عبد الكريم ابن رمان سوى ثلاثين عاماً في حكم الواحة بدون أي تدخل من الإدارة السعودية المركزية، التي كانت ملحقة بها بصورة غامضة، مثل دويلة وسيطة.

هذا الموقف كان متوازياً مع حالة واحة نجران المضطربة في جنوب المملكة العربية السعودية التي كانت قد تركت لشأنها حتى أصبحت، في أوائل الثلاثينيات الميلادية (١٩٣٠م)، سبباً للنزاع بين ابن سعود والإمام يحيى في اليمن، وبعد ذلك تم إدخالها بصورة واضحة في المملكة العربية السعودية بعد كفاح قصير من جانب واحد من المتنافسين.

وربما كان عبد الكريم شديد الشك والارتياب في جيرانه لدرجةٍ تمنعه من أن يسلم بقوة حصانته الواضحة من اهتمام ابن سعود، ومن الممكن أيضاً إن لم يكن من المحتمل أنه في يومٍ ما سيتم دمج تيماء بالكامل في المملكة العربية السعودية، بيد أن ابن سعود كان رجلاً واقعياً، لا يؤمن بإثارة أي موقف قبل أوانه والذي سوف يتطور بصورة طبيعية في الوقت المناسب بمرور الزمن، وربما كان أيضاً يعتقد أن الوقت المناسب لاستيعاب هذه الإمارة في مملكته سوف يأتي بموت عبد الكريم، الذي كان على الرغم من طغيانه ومعاملته القاسية لشعبه، شخصية من طراز الأبطال الشجعان في الصحراء، مثل فيصل الدويش، وفيصل بن حشر و خالد بن لؤي، وغيرهم الكثير، ومنهم محمد بن رشيد، وفي هذا الإطار، ابن سعود نفسه.

ولكن أيام بطولة الصحراء كانت تميل إلى الغروب، وهذا ما يثير الشفقة والأسى إلى حد بعيد، مذعنة بعناد وتصلب، لعصرٍ جديد من الكُتّاب والصحافيين المنتفعين والمرائين المنافقين الذين يتظاهرون بالتقوى والصلاح. لقد كان عبد الكريم ابن رمان بالتأكيد شخصية من نسق الصحراء، ومن المؤسف كثيراً أنه ليس لدينا وصف واقعي له من مصادر أولية؛ فلا دوجلاس كاروثرز ولا بيريز جوسين ولا سافيناك قد اتصلوا به وتعرفوا عليه خلال إقامتهم المؤقتة في

تيماء عام ١٩١٠م، ومنذ ذلك الحين فصاعداً يبدو أن الواحة الشهيرة كانت مغلقة في وجه الأوربيين حتى زيارتي لها بعد ذلك بأربعين عاماً، وعندها كل ما رأيته من عبد الكريم كان قبره ذو الشكل الجديد في المقبرة الواقعة خارج قلعته مباشرة، وبالقرب من المسجد الكبير في الأيام الخوالي، والذي كانت أعمدته توحي لي، كما أوحت من قبل لهوبر في عام ١٨٨٤م، أنها آثار باقية من معبد قديم. بل لقد صد عبد الكريم الأمريكان الموجودين في كل مكان في عصر البترول وأبقاهم على مرمى حجر، على الرغم من أن جماعة منهم، وربما تكون هي نفس الجماعة التي وجدنا أثر سيرها في منطقة المذبح، قد وصلت إلى حد بعيد حتى برج طوّيل سعيد البارز، وعنده ألقوا نظرة فاحصة على الأرض " الحرام " من بعيد. وعلى برج الحراسة القديم في قمة طوّيل سعيد، المدوّن عليه أسماء كثير من الزوار الثموديين قديماً، كانوا قد حفروا الأحرف الأولى من أسمائهم كدليل على مرورهم بهذا المكان.

وبحلول عام ١٩٥٠م، وبعد أن ظل عبد الكريم حاكماً لتيماء ما يقرب من خمسين سنة، لا بد من أنه قد أصبح رجلاً كهلاً، وليس من غير المحتمل أن يكون أتباعه -بعد أن أصبحوا الآن على دراية بالكثير من مشاريع التنمية التي بدأت في المناطق المجاورة لهم اعتماداً على قوة الثروة الجديدة التي أخذت تنهمر على المملكة

العربية السعودية- قد بدؤوا يتململون من الأحوال البائسة التي حكم عليهم بها بسبب طغيانه وأنانيته. وكان بعض أفراد عائلته نفسها أيضاً متعاطفين مع السخط السائد، ووصلت المشكلة إلى أوجها فجأة في ٦ أكتوبر ١٩٥٠م، عندما كان عبد الكريم خارجاً من مسجد القلعة بعد صلاة الجمعة[١] أطلق ابن ثويني بن رمان النار عليه فأرداه قتيلاً، وقد قام عبيد القصر بقطع رأسه في الحال. ومن المثير للفضول حقاً، أنه قبل هذا الحادث بثلاثة أيام فقط كان الملك قد أعطاني تصريحاً بزيارة مدين، وكانت خططي بالطبع تشتمل على إقامة مؤقتة في تيماء.

وقد كنت من بين الحضور في مجلس الملك المسائي ليلة السادس من أكتوبر، عند وصول أخبار الحقيقة المؤكدة لاغتيال عبد الكريم عبر جهاز اللاسلكي، وردّ ابن سعود فوراً بإصداره أمراً يقضي بإعدام فوري للقاتل بعد محاكمة عاجلة، بيد أن القاتل كان، بالطبع، ميتاً بالفعل، وساد اعتقاد في ذلك الوقت أن عبد العزيز، الابن الأكبر للحاكم الراحل، سوف يخلفه، ولكن نظراً لاحتمال نشوء اضطرابات تمّ إصدار أوامر سرية باللاسلكي إلى خالد السديري، أمير تبوك، ليتقدم فوراً بقوات كافية إلى تيماء لضمان المحافظة على

(١) أشار حمد الجاسر إلى أن مقتله كان بعد صلاة الفجر. انظر: في شمال غرب الجزيرة: نصوص ومشاهدات، وانطباعات، ط٢، الرياض، دار اليمامة، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص٣٧٠.

النظام والأمن. وفي الحقيقة قام أول ابن عم للقاتل، ويدعى برجس ابن محمد بن ثويني، بتولي السيطرة على الموقف بعد هذه المأساة، وسلم تيماء للحكومة السعودية عند وصول خالد السديري في ٩ أكتوبر. وكان برجس نفسه، مع ثلاثة من أولاده، وأخيه، وحفيده، وابن أخيه قد تمت دعوتهم للإقامة في الرياض كضيوف على الملك، ومن المحتمل أنهم ما زالوا هناك إذا ما كانوا أحياء حتى الآن. ومنذ ذلك الحين استقر الابنان الأصغران للحاكم القتيل في مدائن صالح، وسمح لهما بأن يظلا هناك بينما العضو الوحيد من العشيرة الذي سُمح له بأن يظل في تيماء وكان موجوداً هناك في وقت زيارتي لها، هو سعود بن عبيد الله، أخو القاتل، وهو شخص عديم الأهمية.

وتم استيعاب تيماء في النظام الإداري العام للمملكة العربية السعودية، وبنهاية أكتوبر سلم خالد السديري إمارتها إلى عبد الله

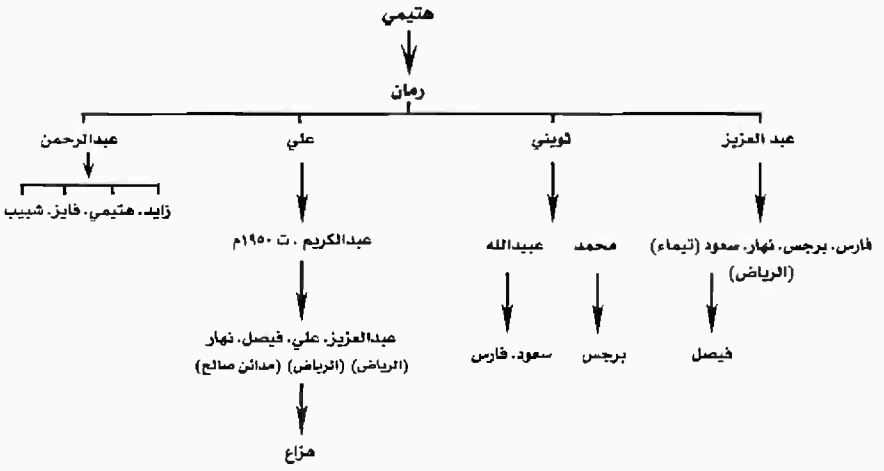

الشنيفي. وهكذا طوى النسيان أسرةً حاكمةً شهيرة، ولم يبق منها إلا القبرين المتجاورين لآخر حاكم لها وقاتله ليدلا على نهايتها. وفيما يلي نسب العائلة:

ويسد حوض تيماء من الجهتين الغربية والشمالية جبل منخفض من الحجر الرملي، يبدأ من قلعة منطر بني عطية وينحني مستديراً إلى تل جال الملح المنخفض ومن الأخير يمتد سورٌ واقٍ اصطناعي نحو الجنوب حوالي ميلين قبل أن يلتف باتجاه الغرب على طول الحدود الجنوبية للحوض لكي يلتقي بجبل منطر؛ وطول هذه القاعدة للمنطقة المثلثة تقريباً يبلغ ثلاثة أميال أو أكثر بقليل. وداخل هذه الحدود تقع الواحة مع بيوتها الحديثة وأنقاضها القديمة، ويغطي نصف المنطقة مسطح طيني مالح من الأرض الجرداء تماماً (سبخة).

وعلى طول الطرف الجنوبي منه تقع بساتين النخيل، وحقول الذرة، ومساكن الواحة الحديثة، في حين توجد بينها وبين السور الواقي الخارجي آثار تيماء القديمة، وفيها أجزاء من السور الدائري المبني من الحجارة المشذبة لا تزال قائمة على الرغم من أن كل شيء آخر في حالة شديدة من الفوضى، وليس هناك غير معاول علماء الآثار ممن يستطيع أن يكتشف الأسرار التي تخفيها الحجارة والأنقاض على السطح الحديث.

وفي أعلى نقطة من الجبل المنخفض الذي يمتد عبر المدينة القديمة توجد أنقاض لما يبدو أنه مبنى من العصور الوسطى، والذي تربطه الأسطورة المحلية بشخص يُدعى بدر بن جوهر، وهو بطل من العهود القديمة والذي يبدو أنه لا يُعرف عنه شيءٌ، على الرغم من أنه من المرجح جداً أن يكون يهودياً.

وإلى الغرب قليلاً من أنقاض المدينة الرئيسة، في ضاحية الغرب وقريباً من النقطة التي يقطع عندها طريق السيارات السور الخارجي إلى داخل منطقة المدينة، تقف أنقاض قلعة أكثر قدماً و أفضل حالا في الاحتفاظ بحالها، والتي تشتهر باسم قصر الأبلق أو "قصر السموأل" حيث اكتسب السموأل اليهودي خلوداً وشهرة دائمة في الشعر العربي لأمانته ووفائه مع عدوه الذي أودعه أسلحته وممتلكاته لحفظها في أثناء طلبه السلامة لنفسه هرباً من أعدائه. ولا يوجد بالطبع شيء في مثل هذه الأعمال التراثية الغامضة ما يمكن أن يحملنا وراء "أيام الجاهلية" التي سبقت ظهور الإسلام.

بيد أنه في ضاحية الغرب هذه نفسها رأى هوبر في ١٨٨٠م لأول مرة، بل وفي ١٨٨٤م اشترى بمبلغ زهيد أحد الآثار القديمة الشهيرة حقاً، يعود للقرن السادس قبل الميلاد، وهو مسلة تيماء التي توجد الآن في متحف اللوفر، وقد كانت تشكّل جزءاً من حجارة البناء المستخدمة في إنشاء منزل مغمور يُعرف باسم بيت الطليحان، الذي

دمره عبد الكريم منذ أمد طويل. لقد قمت بزيارة وتصوير هذه البقعة الشهيرة، ولكني لم أستطيع أن أعثر على أي أثر لأي من أحفاد مالكه السابق، وقيل لي إنهم قد فروا إلى بقعة أكثر نفعاً للصحة.

ويبدو من غير المرجح عندي أن يكون هذا الأثر هو الذي رآه داوتي في ١٨٧٧م بين ركام حجارة البناء المنهارة من جزء من بئر هداج، ولكن الأمر سوف يحتاج إلى حفريات لاكتشاف معبد الإله صلم، الذي وجد فيه على الأرجح. إنه ليس من الصعب أن تجد بين أنقاض تيماء القديمة أشتاتاً وأشتاتاً من الآثار، وقطعاً من الحجارة التي تحمل نقوشاً، وكسراً من الأواني الفخارية والمسكوكات وما شابه ذلك، والمجموعات التي جمعتها من مثل هذه الأشياء يمكن معاينتها في متحف جدة. بيد أنني وضعت جانباً علبة كبريت مليئة بمسكوكات غير هامة على ما يبدو لتقديمها إلى المتحف البريطاني، ومن بينها اكتشف أمين قسم المسكوكات في المتحف، جون واكر، قطعتين فريدتين نادرتين، وهما اللتان لا يمكن أن أقول شيئاً عنهما إلا بعد أن ينشر وجهة نظره بشأنهما، ويبدو أنهما تعودان إلى عهد المعينيين في آخر قرن تقريباً من فترة ما قبل ميلاد المسيح.

إن الطريق من تيماء إلى حائل يمر من خلال الأنقاض بفتحة أو ثغرة في الجزء الباقي من السور الدائري القديم، حيث يشكل زاوية حادة، توجد خارجها مساحة شاسعة من الأنقاض حول حفرة مفتوحة واسعة، وهي كل ما تبقى من بئر قديم، أو عين تُعرف باسم

الوجّاج، لماذا أو متى جفت لا أحد يدري، ولكن المرء يستطيع أن يخمن أنها قد تكون مصاحبة، أو حتى سابقة على هدّاج، التي لا بد من أنها تقع أسفل منها بحوالي خمسين قدماً. إن جفاف الآبار عبر العصور قد يعلل فشل أو نضوب العيون العليا، ولكن مثل هذه المواضيع متروكة لفحص الخبراء، وعلى الرغم من ذلك ربما أجازف بتخمين أن قليلاً من التنظيف والتطهير وتعميق الحفرة القديمة قد يعيد العين إلى سابق نشاطها، فهناك في الأسفل عند عمق ما لا بد أن يوجد ماء، لأن نفس وجود تيماء من أقدم العصور، مثل ما هو الحال الآن، قد اعتمد على حقيقة أن حوضها المغلق يتلقى، كما تلقى منذ قرون، المياه المنصرفة من منطقة تجمع أمطار شاسعة، تمتد على شكل مروحة في الشرق، والجنوب، والغرب لنحو عشرة أميال أو أكثر، وتعبرها سبع قنوات رئيسة، ناهيك عن روافدها الكثيرة.

ومن تلال الربا في شرق تيماء تماماً، ينحدر وادي الحمل، الذي يقويه في وسط مجراه بالمياه المنحدرة من وادي الأطرش الآتية من جبل برقة أم سبا. ويليه في اتجاه الجنوب وادي الحسينية الذي ينحدر من المرتفعات بين برقة أم سبا وجبل سَمْرَة، ويدخل حوض تيماء عند نقطة إلى الشمال شرق من ضاحية الشرق. والقناة الثالثة، وادي الخويلد الذي ينحدر من جبل سمرة ليمر بين الشرق وقطاع هدّاج الرئيس مروراً إلى السبخة.

ومن الكتلة العظيمة لجبل غنيم نفسه يأتي وادي السيفية الذي يمر بين الواحة الرئيسة والغرب، بعد مروره عبر أو على طول جانب المدينة القديمة. وإلى الغرب من الأخيرة يصرف المنحدر الصحراوي مياهه في السبخة عن طريق قناة فاو الطليحات، التي تجري خارج حدود الواحة تماماً عبر منطقة من ألواح الحجر الرملي المسطحة المدون عليها نقوش معظمها باللغة العربية، والتي تبدو أنها كانت تستخدم غالباً في العصور السابقة موقعاً لمعسكرات الحجاج المتجهين إلى المدينة. ولم أرَ أي أثر لأي مبانٍ في هذه البقعة، على الرغم من وجود عدد من القبور العادية. وأخيراً يوجد شعيب الرضّمة وليس غدام كما يظهر على خرائطنا الذي يجري على طول الجرف الغربي، ويتلقى المياه المنصرفة من الهضبة. والنهر السابع من العدد التقليدي لأنهار تيماء كان على الأرجح الأطرش، المذكور آنفاً، على الرغم من أنه يلتقي " بوادي الحمل " قبل أن يصل إلى السبخة. وربما يكون شعيب غيرَان البَنَات الذي يبدو أنه رافد لقناة الحسينية. وينكسر السور الدائري على مسافات متقطعة ليسمح بمرور خطوط تصريف المياه إلى الحوض الأسفل، وهو ربما كان مصمماً لحماية منطقة تيماء من السيول أكثر من الأعداء.

إن أهم وأبرز معلم في تيماء هو بلا شك بئر هدّاج الشهيرة. وهي حفرة هائلة مستديرة تقريباً مضفورة بحجارة مقطوعة جيداً، ويحتاج إصلاحات هنا وهناك، ولكنْ لها مَعينٌ لا ينضب من الماء،

الذي يصل سطحه إلى حوالي ست قامات أسفل حافة البئر. هذه الحافة تحمل هيكلاً خشبياً بدائياً جداً وشديد التعقيد ليسند البكرات التي تتدلى منها حبال البئر المربوطة بقِرَبٍ مختلفة الأحجام من جلد الماعز و الإبل، ويسحبها البعير للخارج إلى أن تصل فوهاتها إلى مستوى الأحواض التي يتم صب محتوياتها فيها. كما أن ترتيب الأحواض الكثيرة العدد أشد تعقيداً من الهيكل الخشبي العلوي، فبعضها يمر أسفل بعض وكلها تنتشر على شكل مروحة في دائرة واسعة لتمر على مختلف بساتين الواحة.

ويقال إنه قد جرت العادة على توفير مساحة لتسعة وتسعين جملاً تسحب الماء في وقت واحد لتلبية الحاجات الملحّة أثناء ذروة الصيف، بيد أنه قيل إن العدد لا يزيد عادة هذه الأيام عن سبعة وسبعين جملاً في موسم الجفاف. وعندما رأيتها في يوم وصولي، بعد فترة من الأمطار الطيبة، كان هناك ثلاثة فقط من الإبل تعمل في سحب المياه. وبعد ذلك بأسبوع كان هناك سبعة وثلاثون جملاً في الحقيقة تسحب المياه، وقد عددت ثلاثاً وأربعين بكرة فقط في الموضع، ولكن عندما زار الملك سعود تيماء في ١٩٥٤م، أعتقد أن مجهوداً خاصاً قد بُذل لإثارة إعجابه بشيء مثل سبعين جملاً تسحب الماء، وبدا من الواضح لي أن محركاً واحداً ذا طاقة عالية يمكن أن يعفيَ هذه الحيوانات من عبئها، ويضاعف من إنتاجية الواحة بإلغاء النسبة الكبرى من منتجاتها الزراعية المطلوبة الآن لغذاء

هذه الحيوانات. ومنذ ذلك الحين قام خبراء من منظمة الأغذية والزراعة التابعة للأمم المتحدة بلا شك بزيارة هذه القرية التي كانت ذات يوم مزدهرة، والآن بائسة فقيرة، إلا أن السلطات السعودية لم تنشر شيئاً عن مثل هذه الخطط، إن وجدت، التي قد يكونون اتخذوها لتنفيذ المشورة التي قد تلقوها من هذه المنظمة. وإذا كان من الممكن أيضاً استئناف تشغيل عين وجّاج، فربما يكون هناك سبب وجيه يدعو للأمل بأن تيماء ستكون مزدهرة ثرية من جديد مثلما كانت بلا ريب منذ ٢٥٠٠ عام تقريباً. وينقل الماء في قنوات صغيرة ضيقة مبنية بصورة غير منتظمة من الحجارة، وقد عددت منها سبعاً وعشرين في حالة صالحة للعمل، بينما أربع أخرى من الواضح أنها لا تستخدم.

وبناءً على ذلك قد يبدو أن ملكية الماء مقسمة إلى حوالي ثلاثين قسماً أو حصة، ليست بالضرورة موزعة على العدد نفسه من العائلات. ويبدو كذلك أن كل قسم أو حصة تمثله تقريباً ملكية ثلاث بكرات، على الرغم من أنه قد قيل لي إنّ بعض الملاك كانوا في فقر مدقع حتى إنهم لا يستطيعون شراء أو تأجير إبل مناسبة. ويفيدنا هوبر بأن عدد النخيل في الواحة الذي يملكه رمان أصلاً كان ٨٠٠ نخلة، ولكن خليفته بعد أن استلم نصيبه الشرعي من أملاك أبيه، لم يكن لديه أكثر من ٢٠٠ نخلة. وإذا كان والد عبد الكريم قد

ورث أيضاً العدد نفسه فإنه وأخاه الوحيد لا يمكن أن يكون عندهما أكثر من مئة نخلة لكل منهما، على الرغم من أنه من المحتمل جداً أنه استطاع أن يضيف عدداً هائلاً من أشجار النخيل لميراثه على حساب رعاياه. وقد تجول داوتي أحياناً في بساتين النخيل هذه، وقد قدر ارتفاع مجموعة من النخيل الفارع الطول في وسط الواحة بخمسين قدماً وهو ما يعد علامة بارزة تسهل رؤيتها من مسافة بعيدة في جميع الاتجاهات وهذا قد أثار دائماً اهتمامي وفضولي مدة طويلة قبل أن أراها على الإطلاق، على الرغم من أن أشجار النخيل التي رأيتها قد تكون بصعوبة هي نفس التي وصفها داوتي، على أي حال، قررت أن أضع المسألة موضع اختبار، وطلبت متطوعين لتسلق أطول نخلة.

وقد كان طباخ الأمير، التيماني هو الذي جعلني التزم بدفع ريالين (أربعة شلنات) عندما انضمّ إلينا في نزهتنا. لقد رأيت أحياناً جامعي محصول التمر وهم يتسلقون النخل لجني الثمر، ومن المؤكد في معظم الأحوال أنهم كانوا يستخدمون نوعاً من الأحزمة يحيط بالنخلة من أحد الجوانب وبظهورهم على الجانب الآخر، والذي كانوا يقذفونه إلى أعلى في أثناء تسلقهم، وهم يمسكون ساق النخلة بأيديهم ويضعون أقدامهم على الجذوع التي يُقطع منها السعف في كل موسم. وكان الطباخ قد ازدرى أي مساعدة نأتيه بها في مثل هذه

المغامرة، وتسلق النخلة، واثقاً بالكامل بيديه وقدميه، حتى وصل إلى مجموعة السعف في القمة ووقف على رأس الساق، وكان قد أخذ معه لفة من الحبال مربوطة بحجر، وعندها أشرنا إليه أن الحجر قد وصل الأرض من يده المفرودة، فقام بقطع الحبل من مستوى يده. وكان قياس طول الحبل ٧٥٠ بوصة، وقدرت أن أطول سعفة كان حوالي خمسة أقدام فوق يده، ومجموع ذلك كله ٨١٠ بوصات أو ٥ر٦٧ قدماً. ونزل من فوق النخلة بالطريقة نفسها التي تسلق بها، وتمتم بسعادة عندما ضاعفت له الجائزة وذلك لحسن أدائه الممتع والبنّاء. إن المرء ينال قدراً عظيماً من الثناء والشكر في الجزيرة العربية عن مثل أعمال التقدير الفوري هذه لخدمات شخصية بسيطة، وربما سوف يظل بعضهم يذكرني لحين من الدهر بأنني الرجل الذي ضاعف مبلغ الجائزة لعمل عادي جداً مثل طلوع نخلة. ولا يزال هوبر يُذْكَر بصورة غامضة فيما يتصل بحجر (مسلة) تيماء الشهير، الذي دفع مقابله نفس المبلغ تقريباً الذي دفعته الآن لتسلق النخل، بيد أنني لم أستطع أن أجد أي صدى لزيارة داوتي من أي شخص، كما لا توجد أي ذكريات باقية من زيارة كاروثرز أو مبشري القدس[1].

ويُقدّر عبد الله الشنيفي السكان المستقرين في تيماء بما لا يزيد عن ألف شخص، وهو هبوط مؤسف عن العهود القديمة، حكماً على ما يبدو للمرء من نطاق أنقاض المدينة القديمة، التي تُعرف محلياً

(١) أي جوسين، وسوفينياك.

باسم القرية. ففي هذه الأنقاض رأيت كتلة من الحجر نصف مدفونة وعليها نقش، كان قد عثر عليها -مؤخراً- الباحثون عن الكنوز، وكان هناك أيضاً أحجار أخرى عليها أسماء ثمودية في المقبرة القديمة، التي كشطتها أو محتها الرمال تقريباً، في الطرف الغربي من المدينة القديمة. وفي المقبرة الحديثة قُرب قلعة الحاكم القديم كانت القبور في بعض الحالات تحمل أسماء من دُفنوا فيها لا أكثر. ومعظمها كان بدون أسماء، ومنها قبرا عبد الكريم وقاتله، اللذان دُفنا جنباً إلى جنب بعد صلاة الجنازة المشتركة عليهما. ففي الموت لا يتم التفريق بينهما، على الرغم من أنهما نادراً ما كانا حميمين في حياتهما. وكان مقر الحاكم الأصلي عند حافة منطقة هداج يُسمى قصر مغيض وفيه برج رائع على نحو لافت للنظر، ويحتمل أن يكون قد بناه عبدالعزيز لأنه كان موجوداً في زمن زيارة هوبر. وقد امتلكه بعد ذلك وكلاء ابن رشيد وظل مقراً رئيساً لهم إلى أن قضى عليهم عبد الكريم في ١٩١٦م.

وكان آخر يوم لي في تيماء هو ١٢ يناير ١٩٥١م، الذي قضيته في مسح وفحص مكثف للمدينة القديمة، حيث زرت خلاله قصر بدر[١] أشهر وأبرز مَعْلم فيها. وهو يقف مقابل سور داخلي يمتد

(١) يعرف هذا القصر بقصر بدر بن جوهر، ويقع جنوبي تيماء، وتحاك حوله قصص خرافية كثيرة، كما يعرف أيضاً بقصر الشايب.
انظر عنه: حمد الجاسر، المرجع السابق، ص٣٩٥.

على طول الجبل المرتفع للقرية، في حين يوجد وراءه امتداد المدينة الذي يصل إلى السور الدائري الخارجي المشيّد من الحجارة، الذي يلتقي طرفاه بالسور الخارجي لمنطقة تيماء. وكان اتساع المنطقة الخارجية حوالي ٢٥٠ ياردة، ويمر طريق حائل عبر منطقة الأنقاض في النقطة التي يلتقي عندها السوران على الجانب البعيد من بئر الوجّاج، وتقع قلعة الحاكم القديم على بُعد ميل إلى الشرق قليلاً من الشمال، مع برج رائع يسمى الغرافة في قرية صغيرة على سور المدينة الحديثة على زاوية ضيقة عن يسارها.

وعلى مسافة بعيدة في نفس الاتجاه تنتصب قلعة طويّل سعيد وبرجها، أما قصر الأبلق، الذي يشتهر محلياً باسم قصر زلوّم[1]، فيقع نحو الشمال - الغربي منا، على بُعد ميل أيضاً، بينما كانت بئر الوجّاج في الجنوب - الجنوب - الشرقي تقريباً، وأقرب من الأول قليلاً.

وعلى بُعد منه، وخلفه تماماً يرتفع لسان خشم غنيم الكبير مع الجبال الصغيرة التابعة له والتي تمتد منه باتجاه الشمال على مسافات متقطعة، تشمل كلاً من السمراء وأم بطحاء وقمة القليب وأم سبع والضُليعات، وقمة غار الحمام التي تعلوها قلعة، وجبال الربا التي تغطي الشرق، وتنتهي بقمة قرن البدن الشاهقة. وإلى الشمال قليلاً

(١) الصحيح أن قصر السموأل هو المعروف بقصر الأبلق، أما زلوّم، فهو قصر آخر يقع إلى القرب من تيماء، بالقرب من وادي يعرف بالاسم نفسه.
انظر عنه: حمد الجاسر، في شمال غرب الجزيرة، ص٣٩٥.

من الغرب كان هناك منطر بني عطية الذي يُعرف محلياً الآن باسم القصير والذي دخلنا منه في حوض تيماء، وتمتد أمامنا مباشرة مساحة الواحة بالكامل تغطي أكثر قليلاً من ربع الدائرة (٩٠ درجة) من الشمال - غرب إلى شرق - شمال.

هذه هي تيماء نفسها كما رأيتها على فترات مختلفة بين رحلات كثيرة في المنطقة المحيطة بها بحثاً عن النقوش. وكان هدفي الأول قمة جبل غنيم وهي قمة بكْرٌ ترتفع لحوالي ٤٠٠٠ قدم فوق سطح البحر. وعند مرورنا من خلال ثغرة في السور الخارجي قرب الأنقاض المقفرة في ضاحية الشرق (بعد أن بدأنا بداية خاطئة استلزمت عودتنا إلى المدينة بحثاً عن دليل جديد ليحل محل الشخص الغبي الذي بدأ معنا)، اتجهنا نحو جنوب - جنوب - شرق لندخل صاعدين شعيب خويلد.

وسرعان ما تركنا هذه القناة لنزور بعض الصخور التي تُسمى رضمة الحنوف، حيث وجدنا بعض الخربشات العربية غير ذات شأن وعدداً كبيراً من رسومات خطية بدائية لرماة راكبين ومعهم رماحهم، وإبل وحيوانات أخرى. ومن هنا مضينا إلى قمة غار الحمام المستدقة الرائعة، وقد سميت بذلك للتشابه العظيم بين القلعة الصغيرة على ذروتها وبرج الحمام. يبلغ طول الجدار الشرقي للمبنى، اثني عشر قدماً، وكان سليماً نسبياً وبه سبعة عشر مدماكاً

من البناء الجيد الجميل وستة من النقوش العربية، والتي وجدنا فيها أيضاً ثلاثة عشر نقشاً على الصخور المجاورة. ومن الواضح أن هذه النقوش كانت من عمل الحجاج المارين بهذه المنطقة. وكان الجدار الشمالي أفضل حالاً من سابقه، وبه ثلاثون مدماكاً من البناء الباقي وبنفس الطول، وعليه كان يوجد نص ثمودي من سبعة حروف. أثرت فيه عوامل التعرية كثيراً. والجداران الآخران من المبنى المربع الأصلي قد انهارا بصورة سيئة، وكل ما بقي منهما سبعة أو ثمانية مداميك من البناء. وبدا الداخل صلباً وصامداً تماماً بأنقاض وركام السقف والجدران المتهدمة، على الرغم من أن المبنى الأصلي لا بد أنه كان برج مراقبة من طابقين. إن قمة غار الحمام قد أعطتنا نظرة رائعة على واحة تيماء إلى الشمال - الغربي، وإلى البعيد نحو الجنوب - الشرقي على جبل حَلْوان وتلال الكتيب ودفافات (الرمال الراقصة) الشاهقة أمامه. ويقع رأس شعيب خويلد عند سفح هذه الصخرة.

وقد سرنا الآن ملتزمين سفح سلاسل جبال غنيم عبر رؤوس سهلة نسبياً للقنوات البارزة منها حتى وصلنا إلى سفح جبل غنيم نفسه بعد ثمانية أميال تقريباً. إن صخوره الرملية المشبعة بالحديد إلى درجة عالية والتي ترتفع إلى ألف قدم، وقد كساها الطقس وعوامل التعرية لوناً أسودَ تتخلله عروق من الصخور ذات اللون القرنفلي والأصفر، لم تمثل لنا أي صعوبة، مثلما كانت أقدام ثمود العديدة

بدأت ومهدت لذلك منذ زمن بعيد، طريقاً واسعاً ومناسباً على مدرج سهل إلى القمة، حيث كنت أقف لأكتشف بلا ريب "المكان السامي" للآلهة القديمة، وربما الإله صلم نفسه. ويحمل وجه الجرف الناعم من الجناح الشمالي لكتلة القمة كثيراً من الرسومات لوجه صلم -ومنها البيضوي الشكل، بدون لحية- أو صورةٍ للوجه مستدقة نسبياً وجبين عريض مستقيم، والذي كانت توضع على أطرافه قرون أو آذان طويلة، تبدو في الحقيقة مثل ريش الطيور الذي يرتديه الهنود الحمر في القصص والروايات التي كنت أقرؤها أيام شبابي، مع ملامح نحيلة عادية. وأمام هذه الستارة السوداء توجد منصة، التي كانت بلا شك موقعاً لمذبح الأضاحي، على الرغم من أنه لم يكن من الممكن تحديدها بين كتل الصخور الرملية المنهارة والتي تغطي سطح الأرض.

ويستطيع المرء أن يتخيل المشهد في العصور القديمة، عندما كانت حشود الناس الوثنيين، جلوساً أو وقوفاً على كل نقطة من نقاط الرؤية الممتازة على جوانب الجبل، لتشاهد باهتمام عظيم المهرجين من الكهنة، وهم يستعدون للتضحية بحيوان ما أو ببكْر عازبة للإله صلم الكبير. وأثناء انتظارهم، ربما لساعات وساعات، على قمة الجبل، لبدء مراسم احتفال التضحية، كانوا يقطعون الوقت بنقش أسمائهم أو تحياتهم أو صلواتهم على الصخور من حولهم. وكان بعضهم صنّاعاً مهرة رائعين ذوي حس مرهف لفن الخطوط

والتزيين، بينما كان آخرون فلاحين بسطاء لا يعلمون أكثر من كتابة أسمائهم أو خربشة صورة بسيطة لحيوان ما على الصخور. وقد مكثت أربع ساعات من فترة ما بعد الظهر أدوّن وأنسخ الكتابات والرسومات، وأسجل جميع تفاصيل مشهد الصحراء الذي كنا نطل عليه. وفي الطريق ونحن صاعدون على المنحدر لاحظت قليلاً من الوسوم البدوية، ولكن لم يكن هناك أي نقوش عربية على الإطلاق، حيث من الواضح أن المتعصبين في فترة صدر الإسلام أو من الوهابيين فيما بعد لم يجدوا طريقهم أبداً إلى هذا المشهد من الطقوس العربية القديمة، والتي كانوا لن يتركوها أبداً سليمة حتى يتسنى لي اكتشافها.

وأعتقد أن الدليلين اللذين كانا معي، وهما رجلان من تيماء يدعيان صويلحاً وليلياً كانا مندهشين أيضاً بنفس القدر الذي اندهشت به من روعة صف وترتيب الآثار القديمة التي عثرنا عليها في القمة. ومن المؤكد أن هوبر كان سيزور المكان لو أخبر بالكتابات الموجودة به، وكذلك بيريس جوسين وسافيناك، اللذان جمعا محصولاً وفيراً من النقوش في اثنين من منخفضات الخبو على بُعد حوالي ثلاثة أميال جنوباً من الغرب، كانا سيفعلان نفس الشيء. كما أنهما لم يعلما أو لم يكتشفا منطقة المحجّة التي كانت صخورها -حسبما اكتشفت فيما بعد- مغطاة بمئات النقوش والصور. وأعتقد

أن اكتشافي " للمكان السامي " على جبل غنيم من بين النتائج الرئيسة لجولاتي الطويلة في أرض مدين. والرسم الأكثر إثارة للاهتمام والإعجاب هو ذلك الذي يبين إهداء رمح ملك بابل، ربما كان نبونيدوس، للإله من قبل رجلٍ حصل عليه فيما يبدو في معركة ما. وهناك نقش آخر حفره رجلٌ شارك في الحرب ضد دادان (العلا الحالية).

إن الصحراء بين جبل غنيم وجبل برد الذي يبرز بصورة واضحة على مسافة في الجنوب - الشرقي، تُعرف باسم خولة، والأرض الوعرة تحدها على اليمين وتملأ المنطقة الجنوبية كلها من سبخة السلامية والحوران الكبرى على اليسار، مروراً بحوض " حفرة الجهراء "، وحتى حافة الهضبة، التي يحدها جبل جبلة الطويل وقوس الجبال الممتد قريباً منها ثم يستدير لليمين تماماً نحو الشمال - الغربي لحوض تيماء. وأسماء هذه الجبال لم يعرفها هزاع ونحن في طريقنا إلى معسكرنا بمنطر، بيد أن ليلياً كان قادراً الآن على سد هذه الثغرة في معرفتي. وقد أدى ضباب بعيد إلى عدم ظهور الجبال عن يسار جبل ضبع، الذي ذكر هزاع اسمه صحيحاً، ولكن الجبل عن يمينه كان اسمه غمرية، يليه بعد مسافة بعيدة على اليمين جبل جَريش، والثلاثة تشكل نسقاً واحداً. ورحلتنا القادمة إلى تبوك سوف تتفادى كل هذه الجبال الثلاثة إلى الشرق منا، وعند ذلك سوف نذكر ونحدد الجبال التي عن يسارنا. وأصبحنا الآن نستطيع

أيضاً أن نرى الخط العام لمسارنا المتجه إلى الداخل بعد الوصول إلى طريق السيارات على طول أحواض السُمك. وعند هذه النقطة كان السُمك الحقيقي يقع عن يسارنا، بينما على اليمين كانت توجد مسلة السُمك، التي تشكل واحدة من مجموعة القمم الثلاثية المعروفة باسم ثليثوات وبعد أن سرنا مسافة مررنا بين جبال سويقة (على يسارنا) وإبدا - العقيلة التي تُرى الآن خلف أحواض الخبو.

وبعد مسافة أيضاً كان الطريق ينحني بين جبل شمرخة من الجبال الكثيرة ذات الأحجار الرملية وساحل الخشيبوات الطويل المنخفض حتى يدخل ويصعد قناة الجريدا. ومن الطريف أنه قد اتضح أن شمرخة هو الاسم الصحيح للمعلم الأرضي الذي سماه هزاع غراميل الرولة وسماه عبد العزيز السديري "سرابط الكشل". إن تغيرات المسميات العربية (التي يصعب التنبؤ بها) في أفواه الأدلاء المختلفين تمثل مصدر الأذى واللعنة التي تواجه مكتشف الجزيرة العربية، الذي يضطر إلى التأكد وإعادة التأكد من كل اسم يسمعه إلى أن يقتنع ويرضى تماماً بأنه -من خلال عملية المسح والإلغاء والاستبعاد- قد حصل على الاسم الأكثر ترجيحاً ليضعه على خارطته. وكان في صيف ١٩٥٠م، على ما أعتقد، أن بعضاً من آرائي قد تعرضت للنقد في المجلس الخاص، حيث تطوع الأمير فيصل بتقديم الإفادة بأن خمسة وسبعين "بالمئة" من جميع الأسماء في خريطتي كانت غير صحيحة.

ولم يكن أمامي إلا أن أقترح أن يساعدني، بمعرفته العظيمة للمنطقة، على تصحيح أخطائي. ومع ذلك، قد يستطيع العالم أن يمضي قُدماً للأمام بصورة جيدة وبدرجة كافية مع مثل هذه المنتجات التي تمكنت أنا ومن سبقوني على إنجازها وتصنيفها، وحتى المسؤولين السعوديين المهتمين مباشرة بمثل هذه الأمور لم يتخلفوا، كقاعدة أساسية، عن طلب نصيحتي وتوجيهاتي بشأن مشاكل الحدود والموضوعات الجغرافية الأخرى. وفي إحدى المناسبات كنت الشخص الوحيد في اجتماع كامل للبلاط في مكة الذي استطاع تهدئة روع ابن سعود وقلقه بشأن الموقع الدقيق لزوجته في الجو، عند سفرها للرياض بالطائرة؛ فقد جاءت إشارة لا سلكية من الطيار تفيد بأن الطائرة كانت بالقرب من غرور[1]، وتم طلب المشورة من الأدلاء المحترفين الذين اختلفوا فيما بينهم وقدموا تخمينات متناقضة عن موقع هذا الجبل الغامض، ولكني استطعت أن أقول للملك أن مكانه في أقصى نقطة للشمال من جبل دمخ أي على بعد ساعة واحدة بالضبط من الرياض بطائرة الملك الداكوتا، وظل في المجلس لتلقي الأخبار فوراً عن وصول الملكة إلى الرياض، التي وصلت فعلاً بعد ساعة بالضبط.

---

(١) يقع هذا الجبل على خط طول ٣٠ْ ٤٤ْ وخط عرض ٨٣َ ٢٣ْ، وهو تابع إدارياً لمركز الخاصرة، وهذا الاسم ما يعرف به قديماً.
انظر: ابن جنيد، سعد بن عبدالله، المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية، عالية نجد، ط٢، الرياض، دار اليمامة، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، ج٣، ص١٠٢١.

وبعد أن حدقت حتى الشبع في مشهد المنطقة الممتدة عند أقدامي، وما بها من جبال أكْباد -ينطقها المحليون أشباد وسماها غوارماني إنكا وسماها هوبر تزباد- وحَلْوان على مسافة بعيدة إلى الجنوب - الشرقي على طريق تشرّف ذات يوم بجولات داوتي وهوبر عليه. ونزلنا من "المكان السامي" لنبدأ في رحلة عودتنا إلى تيماء، حيث وجدنا الأمير يستضيف أخاً آخر من إخوان السديري، وهو سليمان، الذي جاء مع طبيب سوري من مخيّم الجُريدا التابع لعبد العزيز، الذي وصل إليه عبد الله بن فيصل خلال النهار في رحلة قنص لأيام قليلة بالمنطقة.

وقد تحدثنا عن تيماء وتاريخها وآثارها، وأسهب الأمير عن إمكانيات إعادة إحياء المنطقة البائسة التي تم تكليفه بالمسؤولية عنها. وجاء العشاء الطيب والسرير الوثير في ختام يومٍ أستطيع أن أتذكره برضا تام. ففي رحلة الذهاب والعودة على مدى نحو عشرين ميلاً رأينا تقريباً كل شيء يمكن أن نراه في الجزء الرئيس من جبل غنيم وكان أدلاؤنا متعاونين ومساعدين وأكفاء، لا سميا ليليّ، الذي احتفظت به طول مدة إقامتي المؤقتة في تيماء.

وتم تخصيص اليوم التالي لنزهة أكثر طموحاً، والتي أوحت بها حقيقة أن رفاق هوبر قد أحضروا له نقشاً ثمودياً وحيداً من آبار الكتيب وهو لم يزر المكان بنفسه، كما أنه من المحتمل أن رفاقه لم

يذهبوا إلى هناك إلا لإحضار خروف أو حطب، مثلما يفعل خدم الأمير حتى هذا اليوم، على الرغم من أنهم يفعلون ذلك اليوم بالسيارات. إن رحلتنا كلها تقع تقريباً على طول مسارات سياراتهم الغادية والرائحة، وإجمالي المسافة التي قطعناها ذهاباً وعودة بلغت حوالي خمسين ميلاً. ولم أكن آمل فقط في رؤية النقش الذي سجله هوبر، بل لأكتشف الكثير من النقوش الأخرى في المنطقة حيث إنه يبدو من غير المرجح أن رجاله قد تحرّوا واكتشفوا المكان بالكامل.

وفي الحقيقة قد رجعت بخفي حنين في كلتا الحالتين بقدر ما يتصل الأمر بآبار الكتيب بيد أن البعثة أثمرت نتائج أخرى مرضية. وبعد أن عبرنا قنوات خويلد، والحسينية، والهنوف ويزعم البعض أن الأخيرة هذه يمكن أن تعد الوادي السابع من أودية تيماء، على الرغم من أنها قد تكون رافداً من وادي الحمل أو غران البنات فقد قطعنا مسطحي سبخة الأطرش والطليحات وسرنا مسافة قصيرة حتى دخلنا في قناة شعيب الضعة التي يصب فيها الاثنان الآخران قبل أن يلتقيا بشعيب الحمل.

والأخير يصرف مياه منطقة الربا الجبلية، بينما تنحدر الضعة وروافدها من منطقة فيها تلال مسننة منخفضة تُعرف باسم ضليعة غنيم، وتشكل مع الربا الجناح الشمالي لجبل غنيم الرئيس. وبيننا الآن وبين جبال الربا وتلالها المتناثرة يقع سهل مطنة الفريجة، وهو

منطقة شاسعة من الحجر الرملي الأحمر، والتي كان بها أنقاض ثلاث أو أربع قلاع صغيرة قديمة، والتي يحتمل أن تكون الدفاعات الخارجية لتيماء في عصور الاضطراب والفتن.

وبعد حوالي ثمانية أميال من بداية انطلاقنا دخلنا في منطقة الربا والتي من خلالها نزلنا في ممر واسع إلى سبخة هائلة يمر خلالها تصريف مياه المنطقة المحيطة بها عن طريق شعبتي الدوير والدغيمة ويبدو أنه ليس بها منفذ وتشكل بحراً صغيراً داخلياً، الذي تضيع مياهه بالتسرب أو التبخر.

فعلى الرغم من الأمطار الأخيرة التي بدأت مرة أخرى بقوة وكثافة شديدة في بعض الأحيان، خلال الجزء الأول من مارس إلا أن سطح السبخة كان ثابتاً وسهلاً، وسرعان ما كنا على الجانب البعيد بعد سير ملتوٍ غير مباشر، وزرنا أثناءه اثنتين من الصخور التي كانت تبدو مبشّرة وهما المشطبة وغار النودة ونحن في طريقنا إلى نتوء واضح من الحجر الرملي على شكل عش الغراب على المنحدر البعيد، وفي المشطبة وجدنا صوراً ونقوشاً من الثمودية القديمة، ولكن في غار النوده -وهي برج لا يمكن الوصول إليه من صخرة واحدة- لم نعثر سوى على قليلٍ من الخربشات العربية، وكانت السبخة المعروفة باسم "جُفرة الربا" بعرض ميلين تقريباً وبطول ثلاثة أميال على الأقل، وكانت صخرة عش الغراب خالية من

النقوش، ووراءها سرنا بسهولة ويسر لأربعة أو خمسة أميال على طول جرفٍ بارتفاع أربعين قدماً في سبخة أخرى تعرف باسم خبرا الفاطر، وبعدها مررنا في منطقة شديدة الوعورة من ألواح الحجر الرملي، تهبط في رفين منحدرين في قناة شعيب المختبى، التي سرنا فيها مسافة حتى سبخة نقدا ومنها مررنا مباشرة إلى قناة شعيب الكتيب حتى وصلنا حُفر المياه الضحلة في حوضها النهائي. ولا يبدو أن لأي من قنوات التصريف في هذه المنطقة بدءاً من الشوارية فصاعداً أي منفذ حيث تتلاشى في أحواض ضحلة مقابل حافة منطقة النفود الشاسعة حقاً، والتي كانت بها تلال دفافات الشاهقة كمعلم بارز. وكما يوحي اسمها فإنها تلال رملية "مغنّية"، بيد أنه لم يكن لدينا وقت كاف لمحاولة فحص هذا الأمر عن كثب، كما أن المطر والريح الباردة الشديدة التي صاحبتنا طول النهار قد حرمتنا من أي فرصة لسماع موسيقاها. إن هذه الرمال "تُغنّي" فقط عندما تكون جافة.

وتقع حفر مياه الكتيب على مسافة حوالي خمسة وعشرين ميلاً من تيماء، أي تقريباً إلى الشرق تماماً من جبل غنيم، وقريبة جداً من حافة رمال بتراء النفود، التي تكون تلال دفافات جزءاً منها، وخلفها تقع سلسلة جبال حَلْوَان وأكباد وغيرها، على جانبي الطريق إلى حائل. ولم تكن حفر المياه إلا نقر وعرة كُشطت من

الأرض حتى مستوى المياه على بُعد ثمانية إلى عشرة أقدام تحت السطح تقريباً، وقد جف معظمها بفعل الرمل المتطاير مع الرياح. ولم يظهر إلا اثنان منها فقط في حالة صالحة للاستخدام بصورة منتظمة في الوقت الحاضر، وقد بُنيت أفواهها بألواح الحجر الرملي بصورة مستديرة، على الرغم من عدم تبطينها داخلياً، ولم يكن هناك أثر للحياة حولهما، وفشلنا في العثور على أي نقوش في أي مكان بين الصخور والجبال القريبة منها، ولكي نغيّر طريقنا قررت أن نلتزم الشريط الرملي إلى أن استدار بعد حوالي أربعة أميال مبتعداً فجأة إلى الشمال - الشرقي، وأصبح السير صعباً شيئاً ما على طول ذيول قنوات التصريف المختلفة التي تسدها النفود.

بيد أننا الآن كنا في حالةٍ أيسر على سهل من الحجر الرملي، الذي زرنا فيه صخرة شديدة التآكل من أثر العوامل الطبيعية في مرتفعات السراية، ولم نجد نقوشاً إلا بعض الصور شديدة السحر والروعة لبنات يتراقصن، ومن هنا ضربنا في شريط الربا حتى زرنا تلالاً صغيرة مختلفة ولم تكن أحسن مما سبق ما عدا قليلاً من الصور، في حين بدت الريح القارسة أشد عنفاً وقسوة، ثم عدنا إلى مقرّنا بطريق قناة النفازي، وهي على الأوضح رافد من وادي الأطرش، وكانت الأميال الخمسة الأخيرة تقريباً على نفس خطوط مسار خروجنا. ومع الريح والمطر لم تكن الظروف مثالية لخروجنا،

بيد أنهما قد يزيدان سوءاً حيث بدا أن الريح المفزعة تعصف حولنا من جميع الاتجاهات على البعد، والتي لم نر منها أكثر من وميض البرق المتقطع، وقد وجدت في مقرنا أن أقصى درجة حرارة في هذا اليوم كانت ٧٠ درجة فهرنهايت، على الرغم من أننا كنا نشعر ببرودة أشد من ذلك في الصحراء.

وقد راودني شعور، بسبب سوء الأحوال الجوية، أنني ربما لم أعط منطقة واحدة ما تستحقه، كما كنت أستشيط غيظاً من عدم العثور على النقوش التي سجلها هوبر في تلال برق الربا، ولذلك قررت أن أقضي النهار التالي في بحث مكثف لهذه المنطقة المحدودة، وأثناء عودتنا من الطريق نفسه الذي جئنا منه تقريباً في المساء، وصلت وتسلقت تل قرن البدن البارز في منطقة الربا، على بُعد اثني عشر ميلاً للشرق تماماً من نخيل تيماء.

ومن هنا ألقينا نظرة رائعة على كل ما حولنا، ولكنه لا يوجد أثر لأي أنشطة أدبية أو فنية للقدامى. وعلى كل حال فقد لاحظت، على بعد ميل، عموداً من الحجر الرملي يثير منظره الاهتمام والفضول، يدعى الحصين (أي القلعة الصغيرة) التي بدت تستحق الزيارة، وهنا كُوفئت جيداً بمحصول وافر من النصوص والصور الثمودية في حالة جيدة جداً من الحفظ والوضوح. وكانت هذه الصخرة تقف عند الطرف الشرقي لبحيرة عظيمة، تسمى الخبر،

التي تُصّرف فيها المنطقة المحيطة بها كلها، ومما لا شك فيه خلال موسم الأمطار، عندما تكون الأرض المسطحة بحيرة، أن يكون الأقدمون قد اعتادوا على التخييم حولها.

وهناك أيضاً صخرة أخرى مهملة ليست ببعيدة قدمت لنا عدداً أكبر من النقوش، ومن هنا استدرت نحو منطقة تل برق الربا التي وجد فيها هوبر بعض النصوص، وقد وصلنا إلى ما بدا أنه مرتفعها الرئيس بعدما سرنا حوالي خمسة أميال. لقد كانت جبلاً ذا حجم معقول وقمة عريضة، وقد كانت صخوره وزوائده مغطاة بالنقوش الثمودية. حتى هذه اللحظة كان اليوم جميلاً ورائعاً ودافئاً، إلا أننا في هذا المكان هوجمنا بريح باردة شديدة من الشمال - الشرقي، وكل ما كان بوسعي أن أحصد محصولي من النصوص بيدين متجمدتين، إذ كنت أرتعد وأرتجف في هذه الرياح الثلجية.

وفور أن انتهيت وليت وجهي في خط مستقيم للعودة إلى سكننا، على بعد حوالي عشرة أميال، وأنا راض عن العمل الطيب في هذا اليوم، ولكني فوجئت باكتشاف أن النقوش الثمانية التي سجلها هوبر لم تكن من بين مجموعتي على كثرتها.

ومن الواضح أن هناك الكثير من الأعمال التي تُركت لزائري هذه التلال حول تيماء في المستقبل، والتي أعتقد أنها مليئة

بالكتابات القديمة، ولو استطعنا فقط أن نحفر في أنقاض المدينة القديمة فلا تسل عندئذ عن اتساع معرفتنا بالشرق الأوسط القديم.

في ٨ يناير ١٩٥١م، العيد الفضي لإعلان ابن سعود ملكاً على الحجاز، أرضيت نفسي ببعثة قصيرة جداً إلى منطقة أخرى كان هوبر قد زارها من قبل بانطباع خاطئ وهي أن اسمها غار الحمام، والتي ذكرت من قبل أني زرتها.

وكانت سبخة أخرى مألوفة في المنطقة، التي يمر من خلالها تصريف مياه المنطقة المجاورة إلى قاع تيماء. وضفتها اليسرى مرصعة بمتوالية من الأجراف الرائعة، التي تآكلت في العمق عند مستوياتها السفلى بسبب مرور السيول عليها لقرون، والتي تركت الهيكل العلوي من الحجر الرملي بارزاً لمسافة كافية لتوفير ملاذ أو مخبأ ضخم من الشمس والمطر، ومن المؤكد أن القدماء قد استفادوا استفادة كاملة من مثل هذه المزايا حسبما بدا واضحاً من النقوش الكثيرة التي حفروها على الأجراف، والصخور المتكسرة الواقعة، وأسقف الأسطح الناتئة، وكان من الواضح أيضاً أن هذه هي البقعة التي كان هوبر يعتقد أنها غار الحمام، حيث إنني عثرت فيها على كل شيء ما عدا نقشاً واحداً من الواحد والعشرين نقشاً التي نسبها لهذه المنطقة، وقد وجدت الكثير من عشرات النقوش الأخرى التي فاتت عليه حيث كان من الواضح أنه لم يلق بالاً لفحص الجزء

العلوي من الجُرُف. وكان ليليّ، دليلي، يسمي هذا المكان "غيران البنات" (أو البنات) وقد تطوع بإفادتي بأن هذه المخابئ، التي تكونت بالأجراف المتدلية، كانت أحياناً توظف في الماضي، ولا زالت توظف في حالة الحاجة إليها، كمحاجر صحية لعزل مرضى الجدري، ومن هنا جاءت حقيقة تسمية المكان أيضاً باسم "غيران المجدّر"، ومن الواضح أن آخر مرة استخدم هذا المكان لهذا الغرض كانت منذ ثماني سنوات مضت قبل زيارتي، أي في ١٩٤٣م.

لقد كان ليليّ بن علي وأسلافه لعدة أجيال من مواطني تيماء، ولكنه يزعم أن أصل قبيلته يعود إلى فرع الفقراء (فقير) من عنزة، من قوم الحجاج، كما قال، الذي ينتمي إلى فخذ الخمايرة. ودليلي الآخر في هذه الرحلة كان يدعى خُليف بن مرشد، وهو رجل في حوالي السبعين من عمره، والذي استقرت عائلته في ضاحية الشرق بتيماء منذ أجيال عديدة، على الرغم من أنه هاجر أصلاً إلى هنا من قرية موقق قرب حائل. لقد كان شاباً، كما يقول، عندما زار محمد ابن رشيد الكبير تيماء ليؤسس إدارة مباشرة للمنطقة قبل بضع سنوات من وفاته في ١٨٩٧م. وعجوزاً آخر من سكان ضاحية الشرق، الذي قدر لي أن أقابله بعد ذلك في فترة العصر، كان يُقال له: آل عيدي، وكان عمره يتراوح بين السبعين والخامسة والسبعين.

وبعد انتهائنا من غيران البنات سرنا حوالي ميل حتى السور الدائري، ثم التزمناه حول الجناح الشرقي من السبخة الكبرى حتى سفح تل الشرج، الذي وجدت عليه بعض النقوش.

ومن هناك قطعنا مسافة معقولة على أرض السبخة الثابتة، باتساع ميلين تقريباً، إلى أن وصلنا إلى الفجوة بين الواحة الرئيسة وضاحية الشرق. وهنا قابلنا صبر آل عيدي، وقبلنا بسرور دعوته الملحة لتناول الشاي في منزله المتواضع في الطرف الغربي من ضاحية الشرق، الذي نجا مع بستان من النخيل المجاور من الإبادة الجماعية (الهولوكست) التي نفذها عبدالكريم. من خلال هذه الفجوة تتدفق قناة خويلد إلى أسفل في السبخة.

لقد كان لصبر في الأصل ممتلكات أكثر مما هو عليه الآن في هذه المنطقة، وتضم ثروته سبعة آبار وبساتين النخيل والحقول المعتمدة عليها، ولكنه ضحى بكل شيء إرضاء لنزوات الطاغية ما عدا البئر الوحيدة والبستان الذي لا يزال يعيش فيه مع زوجاته الأربعة، وقد أسعدنه بأن أنجبت كل واحدة منهن له ولداً، ومن أجلهم وعلى مدى عمره كان ولا يزال يأمل في رؤية أيام رخاء أفضل تحت ظل الحكم الجديد. لقد كان رجلاً ساحراً عجيباً مع أنه كان إنساناً بسيطاً نسبياً، والذي بدا أن لديه قليلاً من الذكريات عن فترات الاضطراب في عصره، ولم يكن لديه أي معرفة بزيارة كاروثرز أو جوسين

وسافيناك، ومن الواضح أنه لم يكن أبداً في تيار الأحداث الرئيسة التيماوية.

وفي الصباح التالي، بعد أن دخلت على الأمير في زيارة قصيرة لتبادل الأحاديث الودية مع الشاي والقهوة، انطلقت في ما سيكون آخر رحلة لي فيما جاور تيماء. ومررنا من خلال الآثار القديمة على طريق حائل ودخلنا في وادي السيفية، بعد النصب التذكاري وحفر المياه التي تُعرف باسم شمائل حُميان وسميت بذلك على اسم أحد الوكلاء السابقين لابن رشيد من المسؤولين الإداريين عن المنطقة. ووراء هذه النقطة التزمنا مجرى قناة السيفية صاعدين على ضفتها اليسرى حيناً وعلى اليمنى حيناً آخر، على حسب ما تملي علينا طبيعة الأرض، حتى وصلنا إلى نقطة قريبة من القمة الرئيسة لجبل غنيم، على بُعد أكثر من ميل تقريباً وللشمال الشرقي تجاه الفجوة بين جبلي بُرْد وأكباد، ومن خلالها ينحرف باتجاه الشرق إلى حفيرة الشملى وبيضا نثيل في طريقه إلى عاصمة شمّر.

بيد أن غرضي، على كل حال، كان زيارة منخفضات الخُبو حيث وجد جوسين وسافيناك نقوشاً كثيرة. و ضربنا الآن عبر المنطقة إلى الجنوب قليلاً من الغرب فوق أرض رملية ومكسوّة بألواح وعرة، والتي جعلت مسارنا شاذاً وغريباً إلى حد ما حتى وصلنا إلى قمة جبل تحيط بها الأرض الوعرة من جميع الجوانب وقال الأدلاء إن

اسمها المحجة. ولم يكن ليليّ وخُليف على دراية باسم الخُبو، بيد أن المنطقة بيننا وبين منطقة السمك - شمرخة كانت مليئة بأعمدة الحجر الرملي من كل شكل وحجم، وظننت أنه عن طريق فحصي لها جميعاً سوف أصل إلى الصخور التي أطلق عليها جوسين وسافيناك الخبو الشرقية والخبو الغربية. هكذا كان الموقف، ولكن قبل ذلك يجب علينا أن نستجمع كل ما لدينا من حماسة وهمة ضد كل أنواع الاهتزازات. ففي الحقيقة لم نكد ننزل من المنحدر البعيد من الجبل حتى انغرزت اللاند روفر بصورة سيئة في جرف رملي، عندها ذهبت كافة جهودنا لاستخراجها منه أدراج الرياح.

وفي النهاية استسلمنا وتركنا هذا الكفاح غير المتكافئ، وانطلق ليلي بسرور في رحلة على القدمين امتدت خمسة عشر ميلاً إلى استطلاع المنطقة بحثاً عن النقوش، واتجهنا لمجموعة كبيرة من أعمدة الحجر الرملي الضخمة على مسافة بعيدة في الغرب تماماً، التي سميتها مؤقتاً إحدى مناطق الخبو. وكنا سعداء الحظ حيث قضينا يوماً مثالياً من المشي تحت سماء صافية من الغيوم والشمس الساطعة والنسيم البارد. وبين سيارتنا الجانحة والجبل التالي إلى الأمام منا يقع منخفض المحجة الواسع، المليء بالأجراف الرملية، والنباتات الصحراوية، وألواحُ الصخور التي كان من الصعب فيها تمييز الألسنة العليا لخط هام من خطوط تصريف المياه ويوجد رأس المحجة

في جناح جبل غنيم فهو يشترك مع وادي السيفية في خط تقسيم المياه. وعلى مسافة بعيدة، جنوب - غرب، موقعنا تطور إلى قناة سيل عادية، تصل في النهاية إلى خط سكة حديد الحجاز في أحواض قلعة المعظّم الكبرى، وهي محطة رئيسية على طريق الحج القديم من دمشق. وقد عَبَرَ كل من جوسين وسافيناك وادي المحجة في منطقة أبعد من هناك وهما في طريقهما من مدائن صالح إلى تيماء، وقد أوضحا مجراه في خريطتهما، وقُدر لي أن أراه بعد عامين وهو مليء تماماً بالسيول في المعظّم، حيث أعطاها دليلي الجاهل في تلك الرحلة اسم غيران البنات، قائلاً: إنه يأتي من تيماء.

لقد كان من الواضح أنه في مواسم الأمطار الجيّدة والسيول القوية تمتلئ هذه المنطقة السبخة كلها بالمراعي المزدهرة، والتي تقوم القبائل المحيطة بها وسكان تيماء أنفسهم بالخروج إليها للتخييم بها في الربيع. وكان هناك الكثير من البراهين على ذلك في المنطقة التي نمشي فوقها الآن حتى إن ظروفاً مشابهة لا بد أنها قد سادت في العصور القديمة.

وتوجد نقوش ورسوم ثمودية في كل مكان على ألواح الحجر الرملي المسطحة التي تتناثر على هذه الجبال. وقضيت يوماً عامراً بالحركة والنشاط بأقصى ما كنت أتمناه، وأنا أدوّن وأنسخ محتوياتها. لقد كانت منطقة بكراً، حيث لم يأت أحدٌ قبلي هنا لمثل

هذا الهدف، وبذلت أقصى ما بوسعي لكي لا أترك شيئاً لمن سيأتي بعدي ليكتشفه، على الرغم من أنه يصعب أن أدعي أنني قد استنفدت جميع إمكانيات المنطقة.

ومن الجبل البعيد في المنخفض واصلنا سيرنا حتى مجموعة فذة واستثنائية من الأعمدة الهائلة، التي أطلقت عليها مؤقتاً اسم الخبو الشرقي، ومن عمود بارز قرب الحافة الشرقية للمجموعة قمت بعمل مسح تقريبي لمعين منحرف أجوف، أو شكل على هيئة طائرة ورقية، طوله حوالي ميل من الشرق للغرب وعرضه حوالي ٨٠٠ ياردة في أوسع أجزائه. وعلى مسافات بعيدة متباعدة كلها على طول الحافة الخارجية لهذا المكان تنتصب أعمدة ضخمة من الحجر الرملي ذات أحجام مختلفة أكلتها العوامل الطبيعية، بيد أنها كلها ترتفع بصورة مباشرة من الأرض ومن الواضح صعوبة تسلقها، بينما في أقصى الطرف الغربي من هذا الشكل توجد مجموعة الأعمدة المسننة. حوالي خمسين منها تنتشر على خط شمالي - جنوبي لا يزيد طوله عن ٣٠٠ ياردة.

وداخل المعين المنحرف الأجوف لم يكن هناك أعمدة على الإطلاق، وبدا أن المساحة في داخله كانت سهلاً منخفضاً قليلاً، من الرمل والنباتات. وكانت فترة العصر توشك على الانقضاء، ولا بد أن أعترف بأنه لم يكن لديّ وقت لفحص كل عمود من

الأعمدة، وهي حوالي مئة أو أكثر في مجموعها، على أنني فعلاً فحصت حوالي عشرين منها وخرجت بنتائج مخيبة للآمال نسبياً بالمقارنة مع المحصول الوفير الذي جمعته من جبال المحجة غير الهامة إلى حد ما. وكان القليل من الأسماء الثمودية يتناثر هنا وهناك، مع أنه لا يوجد منها على أي عمود ما يوحي بأن هذا المكان كان الملاذ المفضل للأشخاص المتعلمين أو المثقفين. وألغيت مجرد احتمال أن تكون رياح الصحراء الحارة قد مسحت ما سُجل في هذه الصفحات النموذجية المزيّنة. وعندما نزلت الشمس خلف الأفق عدنا أدراجنا لنقضي الليل بجوار السيارة، ولا بد أننا قد قطعنا على الأقل أربعة أميال من المشي على القدمين خلال النهار، حيث كانت الساعة السابعة والنصف مساءً عندما وصلنا إليها، بعد أن ضللنا طريقنا صرنا نذهب هنا وهناك لنجد ما يدلنا على موقعنا، وبحلول هذا الوقت كان خُليف قد بدأ يشعر بالتعب تماماً لأنه، كما قال، لم يشرب قهوته طول اليوم، منذ مغادرة تيماء، وقد هجرته مؤقتاً حاسته الطبيعية لتمييز الاتجاهات.

وبعد وصولنا فوراً، وليس أمامنا إلا قليل من البدائل لنستفيد بأقصى ما يمكن من هذا الموقف المنفر والمثير للاشمئزاز لقضاء الليل، وليس معنا إلا بقايا من طعام رديء كنا قد أخذناه معنا للغداء (شاي وشابوره وحلاوة سورية مصنوعة من السكر والدقيق، وبعض

البسكويت) سمعنا صوت سيارة تقترب منا. لقد كانت شاحنة الأمير مع مجموعة من خدمه وتابعيه وبعض من جماعتي من المدينة مع ليلي مرشدي ليرشدهم، وكنت أنا وخُليف نتطلع إلى عشاءٍ طيب نقابل به التعب وانعدام الراحة التي لا يمكن تجنبها في الليل الذي أسدل علينا سدوله، بيد أنه قد قدر علينا أن نُصاب بخيبة الأمل؛ إنهم لم يفكروا حتى مجرد التفكير في إحضار أي طعام على الإطلاق، ناهيك عن إحضار فراش لنا لقد فكروا فقط في مهمة سحب أو دفع اللاند روفر للخروج من حفرتها الرملية والعودة معنا منتصرين.

ولكن الأمور زادت سوءاً عن ذلك، فقد تسببت جهودنا الأصلية لاستخراج السيارة من الرمل في إصابتها ببعض الضرر، واحتاجت لرعاية ميكانيكي حتى يعيد الأشياء إلى وضعها الصحيح، ولكن السيد فضّل أن يضيع وقته بين أماكن المتعة والترفيه في تيماء بدلاً من أن يأتي لإنقاذنا.

ولم أخف كلماتي في التصريح برأيي في كفاءة ترتيباتهم، وقلت لهم من الأفضل أن يعودوا إلى تيماء ويتركونا في سلام، وطلبوا مني أن أعود معهم في اللوري، حيث إنهم على الأقل لم يكن لديهم أبداً أي نية في قضاء الليل وسط البريّة بدون فرشهم، وقد رددت عليهم بأنني لن أترك السيارة بأي حال من الأحوال إلى أن

يتم إصلاحها وأقودها بنفسي عائداً إلى تيماء، وضاعت عمليات الإنقاذ إلى شجار صامت بين عنادي وهيجان الخدم الصاخب، عندما جلسنا حول نيران المخيم نتبادل كلمات قاسية إلى أن أدركوا أنني لا يمكن أن أتزحزح، وقلت لهم إنهم يستطيعون الذهاب إلى أي مكان، حتى إلى الجحيم إذا أرادوا، ولكنني لن أذهب معهم إلى أي مكان، وبقدر ما كان الأمر يتصل بالناس معي، فقد كان الوقت أكثر من ملائم لحسم نهائي للنزاع، وكنت سوف أسعد لو افترقت عنهم هنا في تيماء، حيث في إمكانهم أن يجدوا وسيلة نقل بسهولة ليعودوا بها إلى المدينة. لقد كان محمد العريفي ورفاقه مجموعة لا تستحق شيئاً.

وكان من الواضح أن أتباع الأمير قلقين من هذا الموقف، وفي النهاية تم الاتفاق بيننا على أن يقوم اثنان منهم، سويد وناصر، بقضاء الليلة حيثما كنت أنا وخُليف، وتعود بقية الجماعة إلى تيماء لترسل السيد وسيارته اللوري لإنقاذنا في الصباح. وهبط السلام أخيراً على الظلام وهدأ أربعتنا في تناغم معقول، نحتفل بمؤونتنا الضئيلة ونرشف الشاي لساعة أو ساعتين، قبل أن نلتف في الرمل حول الجمرات الخامدة لننام إن استطعنا بدون غطاء إلا من ملابس الصيف التي غادرنا بها تيماء في الصباح. ولم تكن ليلة دافئة بأي حال، وفي منتصف الليل استيقظت بنوبة تقلص حاد، وبعدها

ظللت أغفو بصورة غير منتظمة حتى الساعة الثالثة صباحاً، عندما أشعلنا النار مرة أخرى لنحتال على الساعات الباقية حتى الفجر بمساعدة الشاي والشابورة. وعلى العموم كانت ليلة بائسة نسبياً، ولم يطلع الفجر مبكراً، والنجوم العالية مثل صليب الجنوب والفارس وراكب الجمل في كوكبة الظلمان كانت تلمع فوقنا وهي في الأفق الجنوبي تماماً.

وعند غروب الشمس رأينا نجمة الزهراء بوضوح شديد، والهلال الجديد والمشتري يغوصان في خط أمامنا وراء الحدود الغربية لعالمنا، بينما الشعرى اليمانية ترتفع في الشرق لتحيي مرور الزهرة. وكان هناك ندى كثيفٌ حقاً خلال الليل، وكل منطقة المحجة هذه كانت تتناثر فيها برك المياه من الأمطار الأخيرة.

وفور بزوغ الضوء بما يكفي لرؤية الأشياء بوضوح، بدأت أنا وخُليف، بعد أن تركنا صاحبينا في الليل ليحرسا السيارة، في السير نحو منخفضات الخبو وعندما نظرنا للخلف من جبلٍ على طريقنا، شعرنا بالرضى من رؤية سيارة السيد اللوري تصل عند مخيّمنا. وكنا لا نزال هناك بشكل أو بآخر غرب قمة غنيم وجنوب طويل سعيدة وتيماء، بينما كانت أعمدة الخبو التي زرناها في اليوم السابق تغطي نصف ربع الدائرة (٩٠ درجة) بين الغرب والشمال - الغربي. وقد واصلنا المشي تجاه نصب تذكاري على جبل يطل على

منخفضات الخبو، والذي وجدنا عليه مجموعة هائلة حقاً من النقوش والرسوم، التي واصلت نسخها بغير انقطاع. لقد كان عملاً طويلاً على مقدار مذهل من المواد، وكنت مازلت منهمكاً ومنكباً عليه قُرب الظهر عندما وصلنا اللوري واللاند روفر، ومعهما إمدادات رحبنا بها لتناول وجبة مشبعة حقاً.

وكانت المسافة بين هذا الجبل و النقطة التي تعطلت عندها السيارة تبلغ ستة أميال فقط، وبعد أن سرنا ميلاً آخر أو أكثر قليلاً جئنا إلى عمود عملاق من الحجر الرملي في الخبو الشرقي، ينتصب في منخفض دائري عميق والماء حول قاعدته لنواجه بمشكلة إزاحة الرمل لأقدام قليلة، وكانت أجنحة العمود الملساء من جميع الجوانب مغطاة -بمعنى الكلمة- بالنقوش الثمودية، التي انهمكت فيها دونما تأخير، على الرغم من أنه لم يتوفر لديّ وقت إلا لنسخ حوالي خمسين منها فقط قبل اقتراب غروب الشمس الذي نبهنا بحلول ميعاد التفكير في العودة إلى تيماء. وربما أكون قد وفرت على نفسي عناء استنساخ أي من هذه النصوص، حيث إن جوسين وسافيناك قد نسخا ونشرا ما لديهما بالكامل، حسب ما اكتشفت ذلك عندما نظرت في كتاب فان دن براندن ذلك المساء، هذا الاكتشاف وفّر عليّ عناء العودة إلى المكان في اليوم التالي حسبما كنت أنوي أن أفعل. لقد حددت الخبو الشرقي بلا شك، وفي اليومين الاثنين اللذين

قضيتهما فيها أنتجت قدراً وفيراً من النصوص تبلغ ٣٠٠ نص ثموديٍّ تقريباً، كلها جديدة ما عدا الخمسين التي دونتها في هذه البقعة، والمنطقة التي تشبه الطائرة الورقية التي كنت فيها أمس ربما تكون أيضاً الخبو الغربي الذي ذكره جوسين وسافيناك، ولكني لم أتمكن من حل هذه المشكلة بما يرضيني تمام الرضى، وكان النهار يتقدم بشدة نحو الغروب حتى إننا لا يمكن أن نتأخر أكثر من ذلك، كما كان الجو يزداد برداً، ولذلك انطلقنا نحو السيارات وسرنا في خط متعرج إلى طريق حائل، وسرنا صوب جبل أم السبع. وقد كان سيراً وعراً وصعباً، بيد أننا لم نواجه عوائق خطيرة، ووصلنا إلى الطريق بصورة صحيحة بعد أن قطعنا عشرة أميال. وفي ذلك الوقت كانت سيارة اللاند روفر في حالة سيئة للغاية، ولكن بفحص "أنفاس الحياة" فيها مراراً، تمكنت السيارة من أن تزحف إلى تيماء، حيث كان مقدراً لها أن تظل هناك لعدة أسابيع. إن رحلة الذهاب والعودة على مدى يومين قد قطعنا فيها أربعين ميلاً تقريباً، معظمها في مناطق شديدة الوعورة.

وعند عودتي للسكن اكتشفت، نتيجة للمشاجرة في الليلة الماضية، أن محمد العريفي واثنين من مساعديه الرئيسيين قد رحلوا عن المخيم ومعهم جميع أوانينا وقدورنا ومؤننا، واحتجوا بأنهم قد أصابهم الملل مني ولن يذهبوا معي بعد ذلك. لا شيء يمكن أن

يمنحني سعادة وسروراً أكثر من هذا، فقد كنت بكل تأكيد شبعت من رفقتهم غير المفيدة. وكنت أستطيع أن أحصل على بديل لهم، وعليهم أن يعيدوا إلينا الأواني والمعدات والمؤن التي صُرفت في المدينة لي وليس لهم. وكان أكثر ما يقلقني حالة اللاند روفر، وجاء تقرير السّيد في اليوم التالي ليؤكد انطباعي بأنها لا تستطيع أن تسير أبعد من ذلك دون إصلاح كامل، وهذا يتطلب إحضار مختلف قطع الغيار الهامة من جدة. وسوف يستغرق ذلك وقتاً طويلاً وعندئذ قررت بكل أسف أننا سنواصل رحلتنا باللوري فقط، ونترك السيارة وراءنا في عهدة الميكانيكي الذي لا يتمتع بأي خبرة، انتظارا لوصول قطع الغيار اللازمة.

وكرست الصباح التالي، بعد زيارة قصيرة للأمير لمناقشة خطط مغادرتي، لاكتشاف واحة تيماء بصورة مكثفة سيراً على الأقدام حتى آثار المدينة القديمة، التي كتبت عنها سابقاً بدرجة كافية. وقد دوّنت بصورة تقريبية -بأفضل ما أستطيع من قدرة- ثلاثة نقوش عربية هامة (واحد في صالة الأمير الخاصة والاثنان الآخران مثبتان في الجدران على طول الشارع الرئيس، الذي كان يُعد أحد أقذر الشوارع التي رأيتها على الإطلاق). فقد كان هو والحارات والأزقة المتفرعة منه على مسافات فاصلة كلها تستخدم بصورة واضحة تماماً كدورات مياه بانتظام. وقد زرت السوق أيضاً، ومثلما كان عليه،

يضم حوالي عشرين دكاناً، كلها بالكامل مملوكة لغير أهل تيماء، وكان معظمُها مغلقاً، وملاكها غائبون. وعلى كل حال، فقد وجدت أحدها مفتوحاً وعرجت عليه لقضاء بعض الوقت في حديث غير متكلف مع مالكه، عبد الصمد من المدينة، الذي لم أخرج من عنده بانطباع أنه قد جمع ثروة من مشروعه التجاري هذا. وفي جولاتي لاحظت أن جزءاً من عمود قديم من الحجر الجيري يتمدد على الأرض قرب البئر، يبلغ محيطه ٤٥ بوصة وعرضه ٥٣ بوصة في السطح العلوي، الذي يوجد به فتحة للوتد. وربما جاء هذا العمود من المسجد القديم المهجور الذي ذكرته من قبل.

ومن الواحة الرئيسة والآثار واصلت سيري حتى ضاحية الغرب لألقي نظرة أخرى على قلعة قصر الأبلق العتيقة، وكذلك لزيارة منزل الطليحان ذي العمود الأثري الشهير، الذي التقطت صوراً له وللبئر المبنية بجواره، وأثناء عودتي من هناك تجاوزت آثار المدينة إلى ضفة شعيب خويلد خارج السور الدائري مباشرة وعلى بُعد أقل من ميل من حفرة وجاج. وهنا وجدت بئراً على الضفة اليسرى للقناة، وسداً على القناة عمقه عشرة أقدام وقد تآكلت أحجار قاع حوض الشعيب الرملية في قطاع منه، وعلى هذا السد وحوله وجدت العديد من النقوش الثمودية على ألواح الحجر الرملي المسطحة التي كانت تتناثر على الأرض. وفيما يتصل ببعض الحديث الذي كنا

تبادلناه في ثنايا جولاتنا قام ليليّ هنا بإعداد خبز محلي من بذور نبات صحراوي يسمى (سمح). وكان لذيذاً عند أكله وهو ذو لون بني داكن، إن هذا النبات ينمو بكثرة في كافة هذه الصحارى الشمالية من الجزيرة العربية، ومن المألوف أن يسعى البدو وراءه كثيراً، وأكثر القوم فقراً في شرق الأردن عندما كنت هناك. وطبقاً لما قاله ليليّ فإنه ينضج ويُحصد بمنطقة تيماء عند ظهور الثريا، أو في منتصف الصيف تقريباً.

من الواضح أن المرء يستطيع أن يمكث شهوراً في تيماء دون أن يستنفد إمكانياتها الثقافية والترفيهية، ولكن عليّ أن أضع الوقت نصب عيني، وشعرت بأن الشيء الوحيد الباقي لإنجاز وإكمال تحرياتي هو زيارة القلعة القائمة على تل طويل سعيدة البارز، أو المنارة الشمالية -كما كان يسمى- لمنطقة تيماء. وهكذا في ذلك المساء، حملت مؤنتي الأولية على اللوري الذي قدر له أن يكون مطيتي لما تبقى من الرحلة، وكان أسوأ عيب فيه أن عداد السرعة لا يعمل، مثل معظم عدادات السرعة في السيارات العمومية في المملكة العربية السعودية لتفادي أي فحص لاستهلاك الوقود. وقد ضربنا "أكباد المطايا" عبر السبخة ومررنا على تلال جال الملح واخترقناها بطرق ملتوية حول قنوات التصريف في بريّة شاسعة أمامنا حتى وصلنا إلى سفح التل، الذي كان -تقريباً- على بعد

ثلاثة أميال من حافة السبخة. وعلى قمته، التي سطحت بصورة اصطناعية واضحة لهذا الغرض، تنتصب قلعة قديمة، مبنية من أحجار مشذبة تشذيباً جيّداً نسبياً وذات أحجام متوسطة، والتي لا يزال عشرة مداميك منها باقية في حالة تامة من جميع الجهات، وكان من الواضح أنها لا تتعدى برج مراقبة لتحذير وتنبيه تيماء من اقتراب الأعداء، حيث كانت مساحتها لا تزيد على عشرة أقدام مربعة، والزوايا تتجه تقريباً نحو الجهات الأصلية في البوصلة (في الحقيقة بدرجات ٣٦٠ - ٩٠، ١٧١ - ٢٦٢). بيد أنها كانت، على ما يبدو واضحاً، مستخدمة منذ عصور موغلة في القدم لأن جدرانها كانت تحمل كثيراً من النقوش الثمودية، وبعض الخربشة العربية والحروف الأولى المحفورة بشكل جيّد من اسمي الأمريكيين اللذين لم يسمح لهما بدخول تيماء.

والرصيف الذي تقف عليه يمتد منها مسافة خمسة عشر قدماً من جميع الجوانب، وفي الجهة الجنوبية منه قام بعض الزوار العرب بوضع علامة بالحجارة توضح القبلة، الموجهة على ١٩٢ درجة نحو ينبع وبورتسودان، بينما كان الاتجاه الحقيقي لمكة ١٦٨ درجة، لقد تساءلت بتعجب أحياناً إذا كان من الجدير إعداد خريطة للعالم الإسلامي بناءً على اتجاه القبلة من مساجده، بيد أن خبرتي أقنعتني أن النتيجة ستكون صورة زائفة ومضحكة من الحقائق الجغرافية.

ومن المعتقد -على سبيل المثال، كما اعتاد الملك أن يؤكد- أن محراب القبلة في المسجد الكبير في الرياض لا يتجه فقط لمكة، ولا للحرم المكي نفسه، ولكنه في الحقيقة يشير إلى باب الكعبة تحديداً. كما أنه في الواقع يشير فعلاً إلى المدينة، على بُعد ٢٥٠ ميلاً إلى الشمال.

والهدفُ من برج طويل سعيدة -الذي ربما يعود اسمه الحديث "سعيد" إلى وكيل ابن رشيد في حكم تيماء في زمن زيارة كاروثرز لها- كان إتاحةَ رؤية واسعة لكافة المنطقة المحيطة به، ومن المؤكد أنه قد منحنا ذلك. ويقع نخيلُ هداج السامق للغرب قليلا من الجنوب، ونظام جبال غنيم الممتد من قرن البدن حتى "المكان السامي"، يحتل معظم ربع الدائرة الممتدة من الشرق إلى الجنوب، وكانت تلال بترا دفافات رملية واضحة وظاهرة في الشرق تماماً، ومجموعة أخرى من التلال الرملية تسمى المُرَيْر تقع في الشمال - الشرقي تقريباً. وكان منظر بني عطية في الجنوب - الغربي، بينما جبال ضبع والغمرة في الغرب.

وعلى القمة المنخفضة للتل كانت توجد آثار قلعة أكبر حجماً، تلك التي لم أزرها وقد بدت حديثة نسبياً، وعند سطحها يقع أيضاً عدد من الآثار غير المتميّزة، ربما كانت أنقاضاً لخط دفاع ما. وفي أثناء عودتنا بالطريق الذي جئنا منه، توقفنا عند بيت صبر آل عيادة

عند غروب الشمس لتبادل الحديث الودي بصورة نهائية مع تناول القهوة والشاي معه قبل العودة إلى مقرنا لقضاء آخر ليلة. وكان رفاقنا العباقرة قد عادوا أدراجهم وبلا شك، بناءً على طلب الأمير، وكان كل شيء جاهزاً للمرحلة القادمة من رحلتنا، بدون السيارة اللاند روفر والميكانيكي الذي صحبني من الرياض.

ومنذ ذلك الحين كانت السيارة قد قطعت ٣٧٣٧ر٣ كيلومتراً (٢٣٣٥٠٥ ميلاً) على طرق من كافة درجات السوء والوعورة أو بدون طرق على الإطلاق أحياناً.